.. فتحي الشقاقي

صوت المستضعفين
في مواجهة مشروع الهيمنة الغربي

مقدمة

الحديث عن الشهيد فتحي الشقاقي، وعن جهاده، وعن مشروعه الفكري والحركي، بالنسبة لي، ليس أمرا محايدا... ذلك أن العلاقة مع الشهيد لم تكن فقد علاقة سياسية أو فكرية أو نضالية... بل كانت إنسانية في المقام الأول... ولعل إنسانية فتحي الشقاقي كانت أحد أسباب نجاحه المنقطع النظير في تحويل مشروعه الفكري إلي كيان واقعي وإلي مواقف ممهورة بالدم والفداء.

الزمان والمكان.. الحلم والأمل...الإطار التاريخي والإنساني كانوا جميعا يتشابكون كخيوط من نور لتنسج تلك العلاقة التي لم تنقطع شكلا ومضمونا منذ عام ١٩٧٨ وحتى عام١٩٨١ والتي لم تنقطع فكريا منذ عام١٩٨١ وحتى استشهاده في مالطة في ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٥... والتي لن تنقطع بإذن الله لأن فكره ومنهجه ومواقفه تشكل ملحمة فكرية ونضالية تظل منارة لنا إلى أن نلقى الله تعالى...

كان اللقاء الأول في أواخر عام ١٩٧٨ علي أرض جامعة الزقازيق حيث كان فتحي الشقاقي يدرس الطب بتلك الجامعة، وكنت أنا أدرس الصيدلة بنفس الجامعة...والكليتان متلاصقتان والعمل السياسي الطلابي الإسلامي يزيل حدود الكليات بل حدود الجنسيات.

كان هناك في خلفية العمل السياسي الطلابي وغير الطلابي في ذلك الوقت حدثان هامان أولهما تصاعد الثورة الإسلامية في إيران... التي انتصرت فيما بعد في فبراير ١٩٧٩ وأصبحت إحدى حقائق العصر وإحدى حقائق العمل الإسلامي المعاصر وثانيهما زيارة السادات للقدس عام ١٩٧٧ والحديث عن السلام المزعوم مع الكيان الصهيوني.

عودة إلى وقائع لقائي الأول بالشهيد أواخر عام ١٩٧٨... كان الشهيد فتحي الشقاقي قد علق إحدى مقالات الحائط في كلية الطب جامعة الزقازيق، وقد شدتني تلك المقالة وأدركت على الفور كم هي مختلفة ومتميزة عن أمثالها من مجلات الحائط التي يعلقها الطلاب الإسلاميون على الحائط وعن مجمل الطرح الإسلامي في ذلك الوقت، كان فيها شيء جديد لم نألفه عن الإسلاميين وعن أطروحاتهم وأفكارهم... هل هو المنهج؟... هل هو الصدق؟ هل هو الوعي المنقطع النظير؟ هل هو كل هذا؟...

المهم أنني وقفت أمام تلك المقالة الحائطية... وأدرت نقاشا مع باقي الطلاب حولها، وكان حوارا ساخنا اندمجت فيه معهم لدرجة كبيرة جدا... وبينما أنا في قمة اندماجي وانفعالي حول تلك المقالة، رأيت شخصا يتقدم... كان سنه أكبر من الطلاب بعدة سنوات ويرتدي بالطو من الجلد، فوقع في خاطري أنه ليس طالبا بالجامعة... ثم نزع هذا الشخص تلك المقالة، وراح يطويها ليحملها معه... كان الوقت قبل العصر بقليل، ولا أدري لماذا اندفعت نحوه للتشاجر معه، طالبا منه أن يترك المقالة على الحائط عملا بحرية الرأي، وأنه لا يليق مصادرة أفكار الناس على هذا النحو، وفوجئت به يضحك سعيدا بل ويضحك عدد من الطلاب من حولي... ثم ربت على كتفي بحنان قائلا إنه هو نفسه صاحب المقالة، وأنه ينزعها اليوم حتى يعود غدا ليعلقها علي الحائط، لأنه لا يأمن إن تركها أن يمزقها أحد، من الإدارة أو الاتحاد أو الأمن ولم أشعر بنفسي حتى اندفعت إليه أعانقه ثم أبدأ معه حوارا عرفت منه على الفور أنه فلسطيني جاء ليدرس الطب بالجامعة، وأنه بالسنة الرابعة بالكلية، وأن اسمه فتحي الشقاقي... وكعادتي في التسرع والانفعال، وبكل الحيوية التي كنا

نملكها في ذلك السن وتلك الأيام رحت أناقش معه القضية الفلسطينية التي كانت أشعر أنها أهم القضايا، وأن التيار الإسلامي لا يعطيها حقها حين يضع تلك القضية على قدم المساواة مع القضايا الأخرى وأن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للحركة الإسلامية، أومن المفروض أن تكون كذلك، ولم يكد فتحي الشقاقي يسمع هذه الجملة..حتى بادر علي الفور بدعوتي للذهاب معه إلى بيته الذي يقيم به في إحدى ضواحي الزقازيق، حيث كان قد استأجر شقة مع عدد من الطلاب الفلسطينيين في المساكن التعاونية، وهكذا كانت تسمي وقتها ولا أدري ماذا أصبح اسمها الآن، وهي تقع بين مبنى المحافظة وطريق الزقازيق ـ القنايات في ذلك الوقت، ولم تكن بها مساكن أو عمارات كثيرة في ذلك الوقت، ومنذ ذلك اليوم لم ينقطع لقائي به يوميا في ذلك المسكن أو في الجامعة حتى رحل عام ١٩٨١ وبالتحديد في أواخر أكتوبر من ذلك العام.

على مدى تلك الأعوام الثلاثة من ١٩٧٨ حتى ١٩٨١، لم تنقطع حواراتنا ولقاءاتنا... وأذكر أني تعرفت من خلاله علي عدد من الشباب الفلسطينيين، بل والمصريين أيضا، أذكر أنه كان مقيم معه في تلك الشقة طالب بالطب « فلسطيني طبعا » هو (باسل) وآخر اسمه باسم (يونس) بكلية الزراعة ثم لحق بهم فيما بعد طالب فلسطيني جاء ليدرس الطب أيضا يسمي (نافذ) وفي مساكن أخرى بالقرب من مسكنه عرفت رمضان عبد الله وكان يدرس بكلية التجارة،وأذكر أنه في أحد الأيام مرض (رمضان عبد الله الأمين العام الحالي لحركة الجهاد الإسلامي) ، وكان من المفروض أن يؤدي فتحي الشقاقي امتحانا في اليوم التالي وكان من المفروض أن يسهر الليل ليذاكر استعدادا لذلك الامتحان، ولكنه ترك كتبه وأخذ يهتم بتمريض (رمضان عبد الله)، والسهر عليه حتى اليوم التالي وذهب من عند (رمضان) مباشرة إلى الامتحان ومن العجيب أنه نجح بدون مذاكرة !!

أذكر أيضا أنني تعرفت على آخرين لم يكونوا في جامعة الزقازيق بل في جامعات أخرى كالقاهرة وعين شمس والإسكندرية وكانوا يترددون على فتحي في الزقازيق أو يصحبني لزيارتهم في القاهرة.

ومن المصريين الذين تعرفت بهم عن طريق فتحي الشقاقي أو عرّفته أنا بهم أذكر أسامة حميد الشهير بأسامة جغرافيا. وكان طالب بكلية العلوم جامعة الزقازيق ثم حصل فيما بعد علي بكالوريوس اقتصاد وعلوم سياسية ثم ليسانس آداب قسم جغرافيا وماجستير في الجغرافيا وكان عبقرية جغرافية نادرة ولا أدري ماذا حدث له بعد ذلك حيث إنه اعتقل لمدة طويلة جدا وكان يحصل على تلك الشهادات من داخل السجون غالباً.

***

كان الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي في ذلك الوقت يضع اللبنات الأولى، الفكرية والتنظيمية لحركة الجهاد الإسلامي الفلسطيني مع عدد من زملائه الأوائل، وكان الحوار لاينقطع بيننا حول الحركة الإسلامية والقضية الفلسطينية، وكنا نتواصل شيئاً فشيئاً إلي إدراك مجموعة من الحقائق والنتائج.

كنا قد أدركنا في ذلك الوقت أن حركة الإخوان المسلمين لا تملك أطروحة فكرية قابلة للتطور،وأن هناك عيوبا فكرية وحركية ستوصل الإخوان المسلمين وربما تجر معها الحركة الإسلامية كلها إلى طريق مسدود، كنا نرى أن الإخوان المسلمين يتصرفون بمنطق القبيلة وأنهم يتصورون أنفسهم « شعب الله المختار » داخل الحركة الإسلامية وأنهم يهتمون ببناء التنظيم على حساب الموقف والفكرة، بمعني أن المحافظة على التنظيم لديهم أهم من اتخاذ الموقف الصحيح، وكان معنى هذا عزلتهم عن الجماهير، وتوصلنا إلي أنه من المفروض أن تكون الحركة، أي حركة إسلامية مجرد خميرة للنهضة حيث إن الأمة بكاملها هي المسئولة عن هذا التغيير،وأن الحركة الإسلامية مجرد قاطرة لهذا التغيير، أو خميرة لتحريك جسد الأمة بكامله وأن التنظيم مهما كانت قوته وعبقرية بنائه لن يكون قادرا على إحداث التغيير المنشود بمعزل عن الأمة. وكنا نرى أن التنظيم مجرد أداة ووسيلة وليس غاية في حد ذاته، وأنه يجب على كل حركة أن يكون جذرها الشعبي والجماهيري هو عنصر قوتها الأساسي وليس تنظيمها وكوادرها، وكنا أيضاً نأخذ على الإخوان المسلمين عدم إدراك الأهمية الخاصة والمتميزة للقضية الفلسطينية باعتبارها القضية

المركزية للحركة الإسلامية، وكنا ندخل في اشتباكات فكرية حادة مع عناصر الإخوان بسبب اهتمامهم المبالغ فيه بالقضية الأفغانية على حساب القضية الفلسطينية ، وكنا نرى أن معنى هذا أن هناك خللاً واضحا في البنيان الفكري للإخوان المسلمين وليس مجرد خطأ تكتيكي فقط.

وكنا نرى أن حركة – أي حركة – ينبغي أن تكون مجرد حلقة من حلقات الكفاح الإسلامي تمتد بصلة وثيقة إلى ما قبلها، وتتطور في اتجاه ما بعدها، أما اعتبار الإخوان المسلمين أنفسهم الحركة الأم هو نوع من إفقاد الحركة لنفسها وللحركة الإسلامية بالكامل أصالتها، بل ويثير حولها سؤال عن شرعية نشأتها، فهل سقطت من كوكب آخر فجأة وبلا مقدمات، والصحيح أن الحركة الإسلامية هي امتداد لمجمل النضال الوطني، الذي هو بالضرورة إسلاميا، بمعنى أنها امتداد للنضال المعاصر ضد الاستعمار، امتداد لعبد القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي وعمر المختار والأفغاني والنديم ومصطفي كامل ومحمد فريد وعزالدين القسام وغيرهم من زعماء الجهاد والكفاح الإسلامي المعاصر، وبدأنا بالطبع نهتم بدراسة هؤلاء وبدراسة وتتبع يوميات ومراحل هذا الكفاح الشعبي الذي لم ينقطع من أجل النهضة ومواجهة التحديات، واهتم الشهيد فتحي الشقاقي بصورة خاصة بعز الدين القسام على أساس أنه من أكبر حلقات الجهاد الإسلامي ضد الاستعمار الصهيوني والأب الروحي لكل حركة تريد أن تفعل نفس الشيء.

وكان هناك أيضا مد متصاعد لما يسمى الآن حركة (الجهاد الإسلامي في مصر) وكذلك (الجماعة الإسلامية)، وبرغم كل الرجولة والصلابة والراديكالية التي تميز بها هؤلاء، إلا أن عيبا منهجياً خطيراً كان من سماتهم الرئيسية ألا وهو التعامل مع النصوص بشكل مجرد ومنعزل عن بعضه بعضا، وليس بحسبانها منهجا متكاملا يقدم رؤية، وكذا تحملها بقدر هائل من السلفية يحول دون إدراكها للواقع المتغير فضلاً عن ضعف الوعي السياسي لدى كوادرها.

كان الدكتور فتحي الشقاقي يحلم بحركة إسلامية معاصرة، تتجاوز فكريا وحركيا كل هذه الأخطاء، حركة ترى نفسها مجرد حلقة من حلقات الكفاح

الإسلامي سبقتها حلقات وتتبعها حلقات، حلقة تكون طليعة للأمة وخميرة للنهضة وليست بديلا عن الأمة، حركة تجعل التنظيم أداة وليس غاية، حركة تنطلق من اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية، حركة تنفتح على الجميع انطلاقا من ثوابتها فلا تعزل نفسها ولا تنفصم عن جذورها الفكرية والعقائدية في نفس الوقت.

وعلى الجانب الآخر، وانطلاقا من أن القضية الفلسطينية قضية مركزية للأمة الإسلامية كان لابد من دراسة هذه القضية بكل أبعادها التاريخية والعقائدية وتشابكاتها المحلية والدولية. وأدركنا بالدراسة والمثابرة والمناقشة:

- إن إسرائيل هي جزء من مشروع الهيمنة الغربية[1]، وأنها آخر مراحل الصراع

(١) لا شك أن الفكرة الصهيونية فكرة استعمارية أصلاً قبل أن تكون فكرة يهودية، وهي فكرة تقوم على استخدام اليهود كمرتزقة وجماعة عسكرية لتحقيق المصالح الاستعمارية في المنطقة في إطار الصراع الغربي الإسلامي، بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، والفكرة قديمة في الفكر الاستعماري قبل أن يفكر فيها تيودور هرتزل، فهناك على سبيل المثال لا الحصر،نداء نابليون بونابرت إلي يهود العالم من أجل إعادة إنشاء مملكة القدس القديمة سنة ١٧٩٩ م وهناك دعوة الرئيس الأمريكي جون آدامز، إلى استعادة اليهود فلسطين عام ١٨١٨ م وهناك مذكرة سكرتير البحرية الإنجليزية إلي وزير الخارجية بالمرستون التي يقترح فيها دعوة أوروبا إلى إعادة اليهود إلى فلسطين عام١٨٣٩ م وهناك برنامج اللورد سافنسبري إلى مؤتمر لندن بشأن توطين اليهود في فلسطين سنة ١٨٤٠ م وهناك مشروع إدوارد متورد لإقامة دولة يهودية متكاملة في فلسطين تحت الحماية الإنجليزية المؤقتة إلى أن تتمكن هذه الدولة من الوقوف على قدميها سنة ١٨٤٥ م، وهناك كتاب أرنست لاهان المستشار الخاص لنابليون الثالث في المسألة الشرقية،إعادة بناء الأمة اليهودية ١٨٦٠، وصدور كتاب « أرض جلفاد» للورنس أوليفنت عضو البرلمان الإنجليزي ووزير الخارجية والذي يقترح إقامة مستوطنة يهودية علي مساحة مليون ونصف المليون فدان في الأردن وفلسطين عام١٨٨٠ م، وتأسيس بلاكستون في شيكاغو لمنظمة البعثة العبرية نيابة عن إسرائيل،من أجل حث اليهود على الهجرة إلى فلسطين عام ١٨٨٧ ،ومذكرة بلاكستون إلى الرئيس الأمريكي بنيامين هاريسون ووزير خارجيته جيمس لين للعمل علي تخفيف معاناة الشعب اليهودي بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين سنة ١٨٩١، وصدر كتاب الدبلوماسي الإنجليزي وليمر هشلر في « إعادة اليهود إلي فلسطين » سنة ١٨٩٤ ،كل هذا قبل صدور كتاب تيودور هرتزل « الدولة اليهودية» الذي صدر عام ١٨٩٦.

بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، ذلك الصراع الذي يمتد في الزمان والمكان أفقيا ورأسيا، أي أن الصراع صراع حضاري، وأنه على أرض فلسطين يتحدد مصير أمتنا وحضارتنا فإما أن ننتصر وإما أن يتحقق الهدف الغربي والإسرائيلي في القضاء على الحضارة الإسلامية.

- إنه ليس فقط يتحدد مصير حضارتنا على أرض فلسطين، بل مصير العالم بأسره، وذلك أن مشروع الهيمنة الغربي على العالم يتسبب بالطبع في شقاء معظم سكان العالم وتحويلهم إلى خدم في خلفية بيت السيد الغربي، وبالتالي فإن على الحركة الإسلامية أن تعتبر نفسها طليعة لكل المستضعفين في العالم وقيادتهم في معركة ضد آلة النهب والقهر الغربي، وأن الإسلام ينبغي أن يكون بالإضافة إلى أنه دين جزء هام من العالم، فهو أيديولوجية [1] كل الفقراء والمستضعفين من مختلف الأجناس والحضارات.

- إنه مادام الصراع صراعا حضاريا، أي صراع وجود وليس حدود فإن المفاوضات [2] والحلول الوسط وما يسمى بالسلام هي مجرد أوهام وفخ

(١) وفي هذا الصدد أيضاً يقول جمال حمدان في كتابه (استراتيجية الاستعمار والتحرير) صـ١٦٨ « التقت الإمبراطية العالمية مع الصهيونية لقاء تاريخيا على طريق واحد هو المصلحة الاستعمارية المتبادلة فيكون الوطن اليهودي قاعدة تابعة وحليفا مضمونا أبدا يخدم مصالح الاستعمار وذلك ثمنا لخلقه إياه وضمانة لبقائه ». ويقول أيضا في نفس الكتاب صـ١٧٦ « الاستعمار هو الذي خلق إسرائيل بالسياسة والحرب وهو الذي يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال وهو الذي يضمن بقاءها ويحميها علنا ».

(٢) ويؤكد روجيه جارودي على هذه الحقيقة أيضا قائلا: « إن الأب الروحي للصهيونية تيودور هرتزل أشعل الرغبة الاستعمارية في خلق إسرائيل وقدم لها مبررات إقامة هذه الدولة على أساس أنه إذا قامت إحدى الدول الاستعمارية بحماية هذه الدولة اليهودية، فستتمتع بميزة على جميع خصومها لأن هذه الدولة ستعتبر رأس حربة مغروسة في المنطقة من أجل تغلغل استعماري»، وكتب هرتزل في عام ١٨٩٥ في كتابه،الدولة اليهودية قائلا: « ستكون هذه الدولة بالنسبة إلى أوروبا متراسا ضد آسيا وستكون بمثابة الحصن المتقدم للحضارة ضد البربرية» وفي محاضرة روجيه جارودي في ١٣/ ١٠/ ١٩٩٦ فندق الماريوت - القاهرة قال: إن إسرائيل ستلعب دوراً هاماً في المواجهة الحضارية بين العالم الغربي والإسلامي نظرا لموقعها الاستراتيجي في قلب العالم الإسلامي. =

لاستدراج القوى المناضلة إلي مستنقع الخيانة، وأن إسرائيل بكاملها كيان غير شرعي وأنه لا حل هناك سوى الأيديولوجية الإسلامية وحرب التحرير الشعبية لتحرير كامل التراب الفلسطيني، وأنه ينبغي أن يشارك في ذلك الصراع كل فلسطيني وكل عربي وكل مسلم وكل مستضعف.

- إن طبيعة الصراع، وطبيعة تركيب المجتمع الإسرائيلي، وطبيعة المواجهة مع الغرب تستدعي إسلامية [1] الصراع بالضرورة، ويستدعي تلك الإسلامية أيضا أن جماهير أمتنا لا تتحرك الآن خلال وجدانها الديني.

- إنه كان من الطبيعي أن تتساقط القوي المختلفة في مستنقع التفاوض وأنه لا يعصم من هذا المستنقع إلا ثلاثة شروط هي « الإسلامية والجماهيرية والكفاح المسلح، وأن افتقاد أي من هذه الشروط الثلاثة يؤدي إلى عدم القدرة على الاستمرار في المواجهة والسقوط بالتالي عند المنحنيات الصعبة في مراحل الصراع[2].

- إن الكيان الصهيوني مجرد وكيل دولي للاستعمار، وأن الحديث عن الوعد الإلهي لبني إسرائيل حديث مغلوط، لأن يهود إسرائيل أولا ليسوا هم أبناء اليهود الأوائل من ناحية [3]، وحتى لو فرض أنهم أبناؤهم فقد فقدوا أهليتهم بسبب عصيانهم التاريخي المستمر لأنبيائهم وأنه بعد الإسلام بالذات فإن الأمة الإسلامية هي الأمة الرسالية ونحن أولى من اليهود بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسي ويوشع وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم، وأن هؤلاء قد بايعوا الرسول أثناء رحلة الإسراء والمعراج عندما أمهم عليه السلام في بيت

= راجع في هذا الصدد. د.محمد مورو « الإسلام أيديولوجية الفقراء: مقدمة في لاهوت التحرير الإسلامي . مجلة المختار الإسلامي العدد ١٤٢، جمادى الآخرة ١٤١٥ ـ نوفمبر ١٩٩٤.

راجع في هذا الصدد د. محمد مورو ـ كتاب «التحدي الإستعماري الصهيوني ـ وجهة نظر إسلامية باب » نهج المفاوضات ـ نهج خيانة نهج تردد « دار الفتي المسلم القاهرة ١٩٨٤.

(١) راجع نفس المرجع السابق باب « منهج لفهم الصراع».

(٢) نفس المرجع السابق باب نهج خيانة نهج تردد.

(٣) راجع جمال حمدان كتاب «اليهود» كتاب الهلال فبراير ١٩٩٦ ـ القاهرة.

المقدس ليلة الإسراء والمعراج [1]. وأن الموقف الديني الصحيح هو تنحي اليهود عن يهوديتهم ودخولهم في الإسلام، وأن موسى ويوشع وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل لو بعثوا اليوم ما كان بوسعهم إلا الدخول في الإسلام، باعتباره هو الدين الحنيف الذي جاء إبراهيم به أصلا من عند الله والذي كان عليه إسحاق ويعقوب ويوسف والذي جاء محمد ليكون خاتم الأنبياء وجاء المسلمون ليكونوا ورثة كل وعد إلهي.

وأنه من منطلقات دينية فإننا ننحاز نفسيا وتاريخياً إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ويوشع بن نون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى ضد المشركين في ذلك الوقت، ولكننا نعتبر أنفسنا – وليس الصهاينة – ورثة هؤلاء الأنبياء.

– إنه ينبغي لكي نحقق مشروعنا في تحرير فلسطين، بل وتحرير كل مستضعفي العالم أن نفرق بين الإسلام الرسال وبين الإسلام القبلي أو العشائري أو غير الرسالي عموماً، فالإسلام الرسالي يهتم بالعقيدة والفقه ويهتم أيضاً بنفس القدر بالتطور التاريخي للصراع الإسلامي مع القوى الاستكبارية، ويدرك دوره كطليعة مؤمنة في تلك اللحظة من عمر الأمة ويدرك مهمات الأمة ورسالتها تجاه العالم بأسره في أي لحظة من لحظات التاريخ، وأن الإسلام الرسالي لا يتصرف كبديل عن الأمة ولكن كطليعة لها، وأنه يمتلك منهجاً يتعامل به مع القرآن والسنة والواقع، ولا يتعامل معها كمجموعة النصوص المفرقة والمنعزلة عن الواقع وأن الإسلام الرسالي يعرف ويدرك أن الصراع في تلك المرحلة ليس إلا حلقة من سلسلة الصراع الطويل بين القوى الإسلامية الربانية والقوى الاستكبارية، غير مقطوعة الصلة بما قبلها ولا ما بعدها وبالتالي فهو يمتلك تفاؤل التاريخ وحيوية المستقبل، وأن الإسلام الرسالي ذو توجه جماهيري ورسالة نحو المستضعفين وبالتالي يعرف أن حليفه الطبيعي هو الجماهير المطحونة والكادحة، وأن واجبه تجاه الله تعالى يقتضي الوقوف بحزم ضد كل أشكال الاستبداد السياسي والظلم الطبقي، ويقف مع حق الجماهير في

(١) راجع كتب السيرة في هذا الصدد.

الحرية والعدالة والحياة الكريمة، ويقف مع كل المستضعفين في الأرض، وأن الإسلام الرسالي يدرك أن سلاحه الوحيد ـ حاليا ـ هو الجماهير الواعية ولذلك فهو يثق فيها ثقة مطلقة ولا يتآمر عليها أو يخون قضاياها الحياتية والحضارية والقيمية وأنه يتحرك بنفسية المنتصر حتى في أحلك الظروف، الإسلام الرسالي هو التقوى والعقيدة الصحيحة وهو التصدي للاستعمار والصهيونية والاستغلال والنهب والاستبداد،الإسلام الرسالي هو عز الدين القسام وفتحي الشقاقي، الإسلام الرسالي وفق المنظور السابق طويل النفس بلا حدود لأن عمقه الجماهير وليس التنظيم، ولا يسقط قط في المساومة والحلول الوسط، وهو شاهد على الأمة وعلى العالم ويمتلك حيوية مذهلة.

- كان فتحي الشقاقي يعمل لإنجاز هذا المشروع الفكري والحركي، كان يقضي ليله ونهاره في العبادة والنضال السياسي، أو الدراسة أو الكتابة. وشاء الله أن يقيض له في ذلك الوقت(مجلة المختار الإسلامي) التي ظهرت في تلك الآونة. وعلي مدي٢٧ شهراً أي سبعة وعشرين عدداً من تلك المجلة نجح فتحي الشقاقي وعدد من زملائه في إثراء تجربته الفكرية والتبشير بمفاهيمه المنهجية من خلال تلك المجلة،وكان ينشر بها أبحاثه ودراساته تحت اسم عزالدين الفارس، وكانت تلك الأبحاث والدراسات تقوم على منهج متماسك وعلى لغة مميزة، هي قطعة من أروع أنواع الأدب الجميل، ودون أن تفقد مضمونها الفكري ولعل هذه كانت إحدى مميزات فتحي الشقاقي الذي كان يكتب لغة شعرية و أطروحة فكرية في نفس الوقت، وتلك إحدى ملامح عبقريته التي ساهمت في نجاح تجربته ومشروعه الفكري والحركي.

***

وأذكر الآن أن هذا المعسكر كان بمثابة المؤتمر التأسيسي لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين قد تم من خلال معسكر فكري ودراسي وتثقيفي تم على أرض الزقازيق الطاهرة، في عدد من مساكن الطلاب الفلسطينيين بجامعة الزقازيق، وقد حضره الرعيل الأول من الفلسطينيين الذين كانوا عماد هذه الحركة وكان في

مقدمتهم د. رمضان عبد الله الأمين العام الحالي لحركة الجهاد وكان مسئولا عن هذا المعسكر... وكان هناك عدد من المصريين أيضا، وكنت أنا أحدهم بالطبع، وكان هذا تقريباً في نهايةعام١٩٨٠، ويعد هذا المعسكر هو الباكورة الأولى لحركة الجهاد الفلسطيني.

***

تسارعت الأحداث فيما بعد، وحدثت اعتقالات ٥ سبتمبر ١٩٨١، ولأن الهم الإسلامي واحد، فقد فكرنا مع فتحي الشقاقي في عمل نوع من النضال السياسي المدني ضد تلك الإجراءات، واقترح البعض المشاركة في اعتصام داخل الجامع الأزهر بالتنسيق مع مختلف القوي الإسلامية، وتم الاتصال بجماعة الإخوان المسلمين فرفضت كعادتها وقالت إنها سوف تتصرف بمفردها وفقا لأولوياتها ولم تفعل شيئا بالطبع وكذلك تم الاتصال بعدد من الجماعات الإسلامية وحركة الجهاد الإسلامي المصري، وكان أسامة حميد هو حلقة الاتصال، فأخبروه أنهم يفكرون في عمل أكبر من هذا بكثير، ولم نكن ندري ماذا يقصدون بذلك إلي أن حدثت عملية اغتيال السادات وأحداث أسيوط في أكتوبر عام ١٩٨١ [1]،وعلي أثرها تم القبض علي عدد كبير من العناصر الإسلامية وكان منها أسامة حميد الذي تم توجيه الاتهام له ضمن قرار اتهام قيادات جماعة الجهاد التي ضمت أكثر من ٣٠٠ متهم كان ترتيب أسامة بينهم ٢٧٣، وكذلك تم اعتقال علي مجاهد، وأيمن عبد الستار وتم فيما بعد اعتقال عدد من الفلسطينيين، كما تم مداهمة بيوت كل من خالد عبد العظيم وأسامة الشافعي إلا أنهما نجحا في الهرب، وقد نجح أيضا الدكتور فتحي الشقاقي في الخروج من مصر في آخر أكتوبر عام ١٩٨١ قبل قليل من إصدار قرار باعتقاله وعدد آخر من الفلسطينيين فيما عرف وقتها بقضية (الطلائع الأولي)،وأذكر أنني كنت آخر المصريين الذين رأوا فتحي الشقاقي قبيل رحيله من مصر في ذلك الوقت وكنت قد كونت رأيا في ذلك الوقت لم يوافقني بالكامل

(١) راجع د. محمد مورو ـ تنظيم الجهاد الأيديولوجية والجذور ـ العربية الدولية للنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ ١٩٩٠.

عليه، وهو أنه مع كل التقدير لما قام به هؤلاء الذين اغتالوا السادات، فإن مصر لا ينفع فيها العنف، بل النضال السياسي باعتبار النضال السياسي حلقة وسط بين العنف وبين منهج التربية الإخواني المعروف، وأن من الحساب السياسي الاستراتيجي ألا تتورط حركة الجهاد الفلسطيني ـ وبعد اليوم ـ في علاقات مع الحركة الإسلامية في مصر مادامت دخلت في صدام عنيف ودموي مع النظام، لأن من المفروض أصلا أن نوجه بنادقنا إلي عدو واحد فقط هو إسرائيل، أو حتى ضد المصالح الأمريكية، وأنه مادامت الحركة الإسلامية في مصر لم تعرف أولوياتها، وأنه كان عليها أن توجه عملها العسكري ضد إسرائيل أو حتى أمريكا، وبصرف النظر عن مشروعية الصراع مع الحكومة والشرطة المصرية، فإنه في كل الأحوال فإن على حركة الجهاد الإسلامي الفلسطيني أن تؤكد على ضرورة التوجه ضد إسرائيل دون التورط في صدامات مع الأنظمة العربية على قدر الإمكان تحقيقاً لروحها ومنهجها أولاً، وتفادياً لثمن باهظ يمكن أن تدفعه بلا ضرورة ثانياً.

***

وبالطبع في الفترة من ١٩٨١ ـ حتى عام ١٩٨٣ كانت كلها مطاردات أمنية لي ولغيري وكنت في تلك الفترة قد أنجزت بعض الدراسات حول القضية الفلسطينية نشرت بعضها في مجلة (الطليعة الإسلامية) التي كانت تصدر في لندن، وهي دراسات مثل:«قراءة في حرب صيف ١٩٨٢ »، علي حلقتين في أعداد يونيه ويوليو سنة ١٩٨٣،ثم دراسة حول (تاريخ فلسطين الحديث) في عدد لاحق في نفس المجلة [1] « الطليعة الإسلامية » وكنت قد اعتقلت في ذلك الوقت مع عدد من المصريين والفلسطينيين بتهمة مناهضة إسرائيل ودعم حركة الجهاد الفلسطيني وتشكيل تنظيم يستهدف القضاء على إسرائيل والسعي لتنفيذ عمليات ضد الكيان الصهيوني انطلاقا من الحدود المصرية... وكان من المعتقلين معي في هذه القضية خالد عبد العظيم، ومحمود يوسف سليمان فضلاً عن آخرين كانوا لا يزالون في

(١) نقل لي البعض أن الدكتور فتحي الشقاقي قال معلقا على هذه الدراسات إنها تقدم منهجا فذا في فهم الصراع.

السجون وتم التحقيق معهم في نفس القضية مثل أسامة حميد وعلي مجاهد، وكان معنا عدد من الإخوة الفلسطينيين أيضاً منهم الدكتور جميل يوسف عليان مثلاً، كما تم التحقيق مع الأستاذة صافيناز كاظم بنفس التهم إلا أن حجمها الثقافي أدى إلى الإفراج عنها فور التحقيق، والحقيقة أن التهم كان فيها مبالغة كبيرة، فإن العمل الوطني الوحيد الذي قمت به هو تهريب مكتبة الدكتور فتحي الشقاقي الذي كان تركها بشقته بالزقازيق وقد قمت شخصياً بقيادة سيارة نصف نقل تم استئجارها لهذا الغرض وحملنا فيها أمهات الكتب التي كانت في مكتبة الدكتور فتحي الشقاقي وسرت بها وكان معي زميلين فلسطينيين أحدهما اسمه نوفل والآخر لم أعد أذكر اسمه الآن، وقطعنا سيناء بالكامل حتى رفح المصرية، وتم إنزال الكتب لدي بعض الأسر الفلسطينية هناك والذين كانوا يستعدون لدخول رفح الفلسطينية في إطار لم شمل الأسر الفلسطينية وفقاً لاتفاقية كامب ديفيد، وتم حمل الكتب معهم فيما بعد عندما تم رحيلهم إلى رفح الفلسطينية وبذلك وصلت كتب الدكتور فتحي الدراسية والفكرية إلى الأرض المحتلة.

وبعد أن تم الإفراج عنا في أوائل عام ١٩٨٤ كررت التأكيد على موقفي بخطأ وجود اتصال بين حركة الجهاد الفلسطيني والحركة الإسلامية في مصر على خلفية أن الصدام الذي تقوم به الحركة في مصر وكذا العنف الذي تتجه إليه سيجر حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين إلى معارك لا طائل من ورائها، ويضر باستراتيجيتها ومواقفها الفكرية و الحركية،وظل هذا موقفي دائما على عكس بعض الإخوة المصريين والفلسطينيين الذين صمموا على السعي في نفس الطريق الوعرة والمكشوفة طبعا بعد أن عرفت أجهزة الأمن كل شيء عن هذه الاتصالات من خلال تحقيقات١٩٨١ و ١٩٨٣، وتم اعتقال عدد كبير آخر في عام ١٩٨٧ بنفس التهم ولنفس السبب، وكنت أيضا من ضمنهم رغم موقفي السابق، وكانت هناك أشياء لا أدري عنها شيئاً، وكان التعذيب هذه المرة بشعاً،وانتهت التجربة بعد أن قرر الدكتور خالد عبد العظيم وآخرين اعتزال العمل السياسي برمته بعد أن تعرضوا لتعذيب أقل ما يقال فيه إنه كان« تعذيباً وحشياً ».

ومن الجدير بالذكر أن نسجل هنا أنه في قضية الطلائع عام ١٩٨٧، تكررت نفس التهم وهي مناهضة دول صديقة« إسرائيل » ودعم حركة الجهاد الإسلامي، والتخطيط لعمليات عسكرية ضد إسرائيل انطلاقا من الحدود المصرية، وأنه تم التحقيق في هذه القضية أيضاً مع كل من الحاج حسين عاشور صاحب مجلة (المختار الإسلامي) والدكتور محمد يحيي أحد أهم كتاب المجلة نفسها، وكذلك مع الأستاذة صافيناز كاظم الكاتبة الإسلامية المعروفة والدكتور إبراهيم الدسوقي شتا أستاذ اللغات الشرقية بجامعة القاهرة.

***

وبنهاية رحلة الاعتقال عام ١٩٨٧ وبعد الإفراج عني في عام ١٩٨٨ انقطعت تقريباً كل صلة مع الدكتور فتحي الشقاقي، اللهم إلا متابعة أعماله الفكرية في المجلات والصحف ومتابعة أخبار حركته المباركة بالطريقة نفسها، وإن كنت قد ظللت مرابطا على ثغر الفكر والصحافة [1] دفاعاً عن القضية الفلسطينية وإثراء للفكر نفسه والمشروع نفسه الذي يقدمه فتحي الشقاقي وإخوانه إلى أن دهمتنا أخبار اغتياله على يد الموساد في مالطا في ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٥.

محطات في حياة الشهيد فتحي الشقاقي

- فتحي إبراهيم عبد العزيز الشقاقي

- ترجع أصولة العائلية إلى قرية زرنوقة القريبة من يافا بفلسطين المحتلة، والتي هاجرت منها أسرته إلى مدينة رفح بعد احتلال الجزء الأول من فلسطين عام ١٩٤٨.

(١) قدمت في تلك الفترة مئات المقالات الصحفية والدراسات في المختار الإسلامي، العالم اللندنية، العرب اللندنية، اليومية، الشعب المصرية وغيرها دفاعا عن القضية الفلسطينية وإثراء لمشروع الدكتور فتحي الفكري وكذلك عدد من الكتب مثل « سليمان خاطر »، « إعدام كاهانا » « أيمن حسن » « حماس والجهاد » (الجهاد في سبيل الله: حزب الله نموذجاً) فضلاً عن كتابي التحدي الاستعماري الصهيوني وجهة نظر إسلامية ـ ١٩٨٤، « والقضية الفلسطينية من عبد الناصر إلى السادات» ١٩٨٥.

- ولد الشهيد في مدينة رفح بقطاع غزة عام ١٩٥١.

- درس العلوم الرياضيات في جامعة بيرزيت وعمل مدرسا في القدس، ثم درس الطب في مصر بكلية الطب جامعة الزقازيق وحصل على بكالوريوس الطب والجراحة عامة ١٩٨١ وعمل طبيبا في القدس أيضا.

- انخرط في العمل السياسي والنضال منذ وقت مبكر وشارك في نشاطات تنظيمية منذ منصف الستينات.

- التحق عام ١٩٦٨ بالحركة الإسلامية في فلسطين.

- أسس مع عدد من إخوانة حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين في نهاية السبعينات.

- اعتقل عدة مرات منها في مصر عام١٩٧٩ بسبب تأليفه كتبا عن الثورة الإسلامية في إيران، ثم في فلسطين المحتلة عام ١٩٨٣، ثم عام ١٩٨٦ ثم أبعد عن فلسطين المحتلة عام ١٩٨٨ إلى لبنان بعد اندلاع الانتفاضة المباركة في فلسطين عام ١٩٨٧.

- تنقل منذ ذلك الوقت في بعض العواصم العربية والإسلامية لمواصلة طريق الجهاد ضد العدو الصهيوني.

- متزوج وله ثلاثة أطفال هم إبراهيم وخولة وأسامة.

- اغتالته أجهزة الموساد الصهيونية في مالطا يوم الخميس ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٥ وهو في طريق عودته من ليبيا، بعد جهود قام بها لدى القيادة الليبية بخصوص الأوضاع المأساوية للشعب الفلسطيني.

(١)

القضية الفلسطينية قضية مركزية

الشقاقي يعدل الهرم المقلوب

تحتل القضية الفلسطينية مساحة هامة في المشروع الحضاري الإسلامي، ويمكننا أن نقول « إن اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية أمر يدخل في صميم المشروع الإسلامي.

وهذا الأمر يرجع بالطبع إلى أسباب تاريخية ومستقبلية في نفس الوقت، فمسيرة الإسلام الحضارية دخلت في الكثير من التحديات والصراعات ونجحت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء الراشدين في حسم الصراع لصالحها ضد الكثير من القوي الاستكبارية، ولم يصمد أمام الزحف الإسلامي إلا الحضارة الغربية، ودخل الإسلام مع تلك الحضارة الغربية صراعاً مريراً بدءا من عهد الرسول وحتى اليوم، واستطاعت أمة الإسلام أن تحقق النصر في الكثير من المواقع والغزوات على الحضارة الغربية، ولم تكن الحروب الصليبية في الشرق العربي إلا إحديس المحطات في هذا الصراع الذي استمر في الزمان والمكان وبمساحة واسعة في شمال أفريقيا والمغرب العربي وفي الشام وأوروبا ذاتها أيام مجد الخلافة العثمانية وفي البحر المتوسط كرا وفرا، ونحن الآن ومنذ قرنين من الزمان تقريبا نتعرض لضغط وهزيمة أمام الحضارة الغربية، والتي استخدمت في نهاية المطاف اليهود كأداة لتحقيق الحلم الأوروبي بالقضاء على الحضارة الإسلامية.

وهكذا فإن إسرائيل تمثل رأس الرمح الغربي ضدنا ويشكل التحدي اليهودي الغربي أحد أهم معطيات التاريخ المعاصر، فالغرب استخدم اليهود عندنا للتخلص منهم من ناحية، وللكيد لنا من ناحية أخرى واليهود استغلوا الوجدان الغربي الصليبي والمخططات الغربية المتآمرة ضدنا لتحقيق هدفهم في احتلال فلسطين

وإقامة إسرائيل الكبري من النيل إلى الفرات فيما بعد.

ومن ناحية أخرى فإن فلسطين أرض مباركة، وفيها المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، وهي في القلب من العالم الإسلامي، والضربة التي تكون في القلب تمس الكيان كله.

لهذه الأسباب فإن الصراع على أرض فلسطين يمثل المسألة الأهم في مستقبل الحضارة الإسلامية، فعلى أرض فلسطين يتحدد مصير الأمة الإسلامية فإما النصر وبداية الصعود الإسلامي الثاني وإما الإبادة والنهاية لحضارتنا لا قدر الله.

وهكذا فإن اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية يشكل رقما هاما في المشروع الحضاري الإسلامي.

***

والقضية الفلسطينية بالنسبة للشقاقي هي القلب والعقل ما، فكرا وحركة وجهادا وتنظيما، والقضية الفلسطينية بالنسبة لتيار الشقاقي قضية مركزية للحركة الإسلامية وللأمة الإسلامية، وقد قدم الشقاقي إسهاما فكرياً نظريا رائعا لتأصيل هذه المعركة ووضعها على محك التطبيق العملي والشعار السياسي وبناء التحالفات التكتيكية والاستراتيجية بل وكذا موقفه النقدي من الحركات الإسلامية ومن الإسلاميين عموماً ومن كل القوى والدول والحركات.

يرصد الشقاقي مواقف الإسلاميين حول القضية الفلسطينية في ملف له بعنوان القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للحركة في العدد١٣ من مجلة المختار الإسلامي،يوليو ١٩٨٠ قائلا « تفاوتت مواقف الإسلاميين من القضية الفلسطينية إلى درجة تثير الدهشة، فمنهم من يتجاهلها وكأنها قضية سياسية ـ لا تتجاوز قضية الخلاف بين عمان ورأس الخيمة- ويتصورون ـ وكطريقتهم المعتادة في التصور ـ أن قيام دورة إسلامية في المنطقة سينهي المشكلة تماما وسيحسم الصراع الطويل ويعيد فلسطين إلى أهلها خلال ساعات ولو سئل هؤلاء عن الدولة الإسلامية التي يريدونها لا تسمع منهم إلا قولاً واحدا :إن ذلك ليس من شأننا التفكير فيه والتخطيط

له،علينا نحن العمل والعمل فقط.وهؤلاء للأسف يجهلون مرحلتهم ويجهلون أدواتهم، ذلك لأنهم يجهلون جوهر الصراع الدائر على أرض الوطن الإسلامي الآن، قبل جهلهم بالقضية الفلسطينية وموقعها من المرحلة ومن دائرة الصراع، ومن الإسلاميين من يتصدى للقضية الفلسطينية ويقترب منها ومن دوامة الصراع السياسي حولها مقدما موقفه كتعبير عن الموقف الإسلامي ـ كما يظن ـ ومراوحا في ذلك بين التنازل السياسي في التحليل والرؤية إلى جزيئات استطاعت الدول الكبرى أن تقدمها لنا وكأنها هي كليات القضية، وبين الموقف اللاتحليلي والعاطفي الذي يرى أن فلسطين هي أرض المقدسات الإسلامية وأن الأيدي الإسلامية المتوضئة هي التي ستحررها وكفى الله المؤمنين شر الدراسة والوعي والتحليل، والحقيقة أن تلك المواقف جميعها التي بنيت على فهم سطحي أو على عدم فهم أصلا لمهام الحركة الإسلامية المعاصرة ولأصول القضية الفلسطينية هي مواقف غير أصلية في تراث الحركة الإسلامية فعندما تقدم حسن البنا رحمه الله إلى فلسطين ليضع على أرضها قواعد إخوانية جديدة –وعندما قدم الإسلاميون خيرة شبابهم شهداء على أرض فلسطين بين ٤٧-١٩٤٨ كانوا في الحقيقة يكرسون الشعلة التي تقدم الشيخ المجاهد عز الدين القسام في منتصف الثلاثينات في أول محاولة لإضاءتها».

وبتحليل مضمون ذلك التحليل النقدي للدكتور الشقاقي نجده يقدم أولاً رؤية نقدية لمواقف الحركة الإسلامية من القضية الفلسطينية فهي مواقف لا تلبي طبيعة التحدي ولا تستجيب لخطورة القضية ومركزيتها وهو هنا لا ينقد فقط مواقف الإسلاميين تجاه القضية الفلسطينية ولكن أيضا يضرب بفأس نقدي نوراني في أمراض وعيوب الحركة الإسلامية المعاصرة فهناك غياب للدراسة والوعي والتحليل، واكتفاء بمفاهيم عمومية ومواقف لا تدخل في صميم المشكلة بحثا ودراسة وجهادا، وهناك فهم سطحي أو عدم فهم أصلا ويرجع الدكتور فتحي عدم الفهم هذا أو الفهم السطحي،إلى عدم فهم الإسلاميين أصلا لمهام الحركة الإسلامية المعاصرة ولأصول القضية الفلسطينية و نحن بدورنا نؤكد على ما قاله الدكتور فتحي الشقاقي فأين الوعي والتحليل والدراسة التي قدمها الإسلاميون خارج تيار

الشقاقي الفكري والحركي، لطبيعة الصراع، وطبيعة تركيب العدو الصهيوني، ودراسة إسرائيل كجزء من مشروع الهيمنة الغربية أو وضع المشكلة في سياقها التاريخي والحضاري باعتبارها جزءا من الصراع الطويل الممتد في الزمان والمكان بين الحضارة الإسلامية التي تمثل الحق والعدل والحرية والحضارة الغربية التي تمثل القهر والوثنية والنهب والعنصرية... بل أين هي الدراسات والتحليلات التي تحل إشكاليات الواقع المعاصر؟ بل أين هي الدراسات والتحليلات التي تعرف الحركة الإسلامية باعتبارها حركة تحرر وطني تستند إلى الأصول الإسلامية، وليست مجرد فرقة دينية أو سياسية قديمة أو حديثة؟، إن الحركة الإسلامية المعاصرة لم تجب على سؤال: من نحن؟ وماذا نريد؟ فهل كان من الممكن أن تجيب على أسئلة وإشكاليات صراع معقد ومتشابك مثل الصراع مع الكيان الصهيوني ومشروع الهيمنة الغربي برمته.

ويسخر الدكتور فتحي الشقاقي من نمط التفكير السائد لدي الإسلاميين محددا أحد أسباب عدم انتصار هذا التيار حتى الآن رغم كل الظروف الموضوعية التي تعمل لصالحه.. فهم يتصورون كطريقتهم المعتادة في التصور، المصابة بالتعالي وسوء الفهم وأحيانا الجهل، أن قيام دولة إسلامية في المنطقة سينهي المشكلة تماماً وسيحسم الصراع الطويل ويعيد فلسطين لأهلها خلال ساعات وهم هنا أولا لا يقدمون حتى تصوراتهم عن تلك الدولة الإسلامية المنشودة، ما شكلها؟ ما طبيعتها؟، ما أولوياتها؟، ما برامجها؟، ومواقفها وتحدياتها؟، وكأننا نعيش في كوكب آخر منعزلين عن الصراعات العالمية ومنبتّي الصلة مع التاريخ والجغرافيا، ويهربون من الإجابة بقولهم: إن ذلك ليس من شأننا التفكير فيه أو التخطيط له علينا العمل والعمل فقط، وهل يمكن العمل بدون خطة استراتيجية وتكتيكية؟ وهل نحن نعمل في فراغ مثلا؟ وحتى إذا صح هذا بالنسبة للحركة الإسلامية في بنجلاديش ـ وهو لا يصح أيضا ـ فإن من غير المعقول أن يصح هذا في وسط معمعة هذا الصراع الكوني على أرض فلسطين وفي المنطقة المحيطة به.

إلا أنه من المفيد هنا ـ أن ننقد الدكتور فتحي الشقاقي أيضا لأنه بعد أن ضرب

فأسه النقدي النوراني في جوهر المشكلة وأسباب المرض عاد ليعطي نوعا من الاعتذار في محاولة مفهومة لعدم استثارة قوة سياسية بعينها- الإخوان المسلمون - وللفت نظرها أن مؤسسيها التفتوا إلى طبيعة المعركة، فلماذا هم يتراجعون ويكونون أقل وعيا وفهما وحركة من جيل المؤسسين، ورغم أن هذا صحيح جزئياً إلا أن النقد الموضوعي الشامل لا يتفق مع الدكتور الشقاقي في تلك النقطة، إنه يلفت نظر جيل الإخوان المسلمين الحالي إلى ممارسة الإمام الشهيد حسن البنا في هذا الصدد الذي أدرك قواعد الصراع واستجاب للتحدي، ولذلك الجيل الإخواني في عام ١٩٤٧-١٩٤٨ الذي قدم خيرة شبابه شهداء على أرض فلسطين، والذين كرسوا شعلة الوعي المضيئة للقضية الفلسطينية كقضية مركزية للحركة الإسلامية، ومع كل التقدير والاحترام لجهود البنا التاريخية في تلك الفترة، ولإسهامات ذلك الجيل الإخواني الذي قدم خيرة شبابه شهداء على أرض فلسطين نسأل سؤالاً مهما لماذا لم تستمر تلك المسيرة الجهادية؟ لماذا تراجع الاهتمام بالقضية الفلسطينية لدى هؤلاء؟، لماذا لم تقم حركة الإخوان المسلمين في فلسطين باستمرار الكفاح المسلح ضد الكيان الصهيوني منذ ١٩٤٨ وحتى فترة طويلة؟ أو لماذا تركت القضية إلى القوى العلمانية أو الوطنية على اختلاف مشاربها واتجاهاتها تعيش بها وعليها وتصل بها في النهاية إلى المأزق المعروف نقول « لو » أن الإخوان المسلمين في فلسطين استكملوا ما بدأه البنا، وساروا في طريق الكفاح المسلح، لتغير وجه المنطقة ولما كان المسار الفلسطيني قد وصل إلى هذا المأزق، ولما كان المسار العربي برمته قد وصل إلي هذه الأوضاع المأساوية، ولكان من المستحيل عمليا وصول الأنظمة الاستبدادية إلى الحكم في الوطن العربي والتي استخدمت شعارات الصراع مع إسرائيل بعد أن سقط الشعار من القوى الإسلامية، بل لما كانت القوى الإسلامية قد تعرضت لهذا الليل الطويل من الاضطهاد والتعذيب والسجن وأعواد المشانق، وهذا بالطبع رد على هؤلاء الذين سيبررون تراجع النضال الإسلامي ضد التيار الصهيوني بعملية الحصار والاضطهاد التي تعرضت لها الحركة الإسلامية في بلدان الوطن العربي المتاخمة لفلسطين، وهي بالطبع حجة البليد ووضع للهرم على راسه بدلا من قاعدته، فلو كانت الحركة الإسلامية وخاصة في فلسطين - قد سارت في

طريق الكفاح لكانت الشعوب وقفت وراءها هي وليس وراء قوى العسكر أو العلمانيين ولكان هؤلاء لم يجدوا شيئاً ليركبوه للوصول إلى السلطة وممارسة أعمالهم الخبيثة.

والحقيقة العارية ـ بلا معاملات السياسة والظروف ـ أنه لو كان البنا قد وضع القضية الفلسطينية كقضية مركزية في صلب منهجه ومشروعه السياسي والحضاري لما أمكن التراجع بهذا الحجم لدى الأجيال التي تلته عن هذا الشعار والنضال والجهاد ومن أجله..

ونضيف هنا أسئلة وأحداث لا سبيل لنكرانها والشك فيها فما الذي يجعل رجلا مثل الشيخ حافظ سلامة هو الذي يقود جهاد شعب السويس في مقاومته ضد الجيش الإسرائيلي عندما حاول هذا الجيش احتلال مدينة السويس عام ١٩٧٣ وأين كان الإخوان المسلمون... وما الذي يجعل رجلا مثل الشيخ أحمد المحلاوي هو الذي يقود المعارضة السياسية لكامب ديفيد ومشروع السادات التصالحي مع إسرائيل في نهاية السبعينيات، وما الذي يجعل الدكتور الشقاقي نفسه وحزب الله في لبنان هما اللذان يعيدان الوجه الإسلامي للمقاومة المسلحة ضد الكيان الصهيوني ثم تأتي حماس معهم وكرد فعل لهما، ولماذا لا تتفجر الانتفاضة إلا بعد نضال سياسي لتيار الدكتور الشقاقي في الأرض المحتلة، ما الذي يجعل كل هذا يحدث لو لم يكن هناك خلل في المنهج الإخواني ـ ليس تكتيكيا بل استراتيجياً.

نعود إلى الدكتور فتحي الشقاقي حيث يحلل لنا طبيعة الصراع ويعطيه أبعاده التاريخية والحضارية وهي محاولة رائدة له بالطبع، استحق بها أن يكون رمزاً للمرحلة بل رمزا لحركة الإسلام في القرن العشرين في مواجهة مشروع الهيمنة الغربي.

يقول الدكتور الشقاقي:« علينا أن نلجأ وبدقة إلى حركة التاريخ فوق أرض الوطن الإسلامي كأداة تملكها وتسيرها سنة الله المؤثرة في هذا الكون، لنحاول استيعاب جذور القضية الفلسطينية وعلاقتها بأزمة الوطن الإسلامي ككل، ذلك إن

أردنا أن نعي مرحلتنا وأن نعي أهدافنا وأدواتنا وإن أردنا أيضاً أن نقترب مرة أخرى من شعلة الوعي والثورة » والشقاقي هنا يلفت النظر إلى أن القضية الفلسطينية ـ هي جزء من قضية الوطن وبالطبع فإنها في القلب من هذا الوطن كقضية وكجغرافيا وتاريخ وكرمز ديني.

ويستكمل الدكتور الشقاقي: « لقد حكمت الدولة العثمانية فلسطين كجزء مهم من الارض الإسلامية وعندما بدأت التوجهات اليهودية الصهيونية إلى فلسطين في نهاية القرن الماضي أعيد التشكيل الإداري في المنطقة لتصبح فلسطين وحدة إدارية تابعة مباشرة للصدر الأعظم في اسطنبول،هكذا كان المنظور الإسلامي يتعامل مع الأرض الإسلامية ولم يكن قد برز بعد مفهوم الحدود التاريخية للوطن الذي سيشكل فيما بعد أسس الاتجاهات الوطنية في المنطقة العربية كما أنه سيشكل أساس الفكر التوسعي الصهيوني، ولكن الصراع الحاد المتواصل بين الإسلام كمجتمع ونظام بين الإسلام كتيارات فكرية واجتماعية الذي استمر طوال القرن التاسع عشر على أرض الوطن الإسلامي كان قد استطاع على مشارف القرن العشرين أن يقدم نتائجاً في غاية الخطورة فمنذ الحملة الفرنسية وحتى الحرب العالمية الأولي والغرب يحاول وبكل الوسائل تدمير الحائط الإسلامي الصلب الذي يمنع سيطرته على مكامن الثورة في العالم ويشكل تهديدا أصيلاً لقيمه وبنيان نظامه وهكذا فقد استخدم الغرب حرابه العسكرية وبعثاته التبشيرية ومدارسه العلمانية ضمن هجمة عريضة ومتواصلة كان أخطر أدواتها تلك النماذج من أنباء المجتمع الإسلامي التي هزمت روحيا وفكريا وعملت كأدوات لعلماني الغرب ولأطروحاته السياسية القومية وبالذات ضد وطنهم، وهكذا ومع بداية القرن العشرين كان حزب الاتحاد والترقي يدعو إلى قومية طورانية في تركيا وكانت الأحزاب والجمعيات العربية مثل « العربية الفتاة، وجمعية العهد وجمعية بيروت الإصلاحية وحزب اللامركزية» وأخري كثيرة تدعو إلى قومية عربية ودولة عربية مستقلة عن دولة الخلافة.

وعلى الجانب الآخر كانت الحركة الصهيونية كتعبير عن الفكر اليهودي

التاريخي تحدد ملامحها السياسية في أوروبا كحليف أصيل سياسيا وفكريا للاستعمار الإمبريالي ضد ثروات الشعوب وللهجمة الغربية ضد الإسلام ووطنه، وهكذا ولدت الحركة القومية العربية ابنا شرعياً للهجمة الغربية ضد الوطن الإسلامي وبدت الحركة الصهيونية جزءاً أصيلاً من تلك الهجمة بكل ملامحها ».

وهكذا فإن الشقاقي يصل إلى الكثير من الحقائق التاريخية التي لابد منها لفهم طبيعة الصراع ولتحديد التحديات ووسائل الاستجابة الصحيحة والمكافئة لها.

ففي إطار الصراع التاريخي بين الإسلام والغرب، كان الغرب منذ الحملة الفرنسية يحاول بكل الوسائل تدمير الحائط الإسلامي وذلك بسبب الصراع التقليدي الذي يجعل من الحضارة الإسلامية تهديدا مستمرا و أصيلا للغرب وقيمه وبنيان نظامه، وبسبب رغبة الغرب أيضا في الوصول إلى مكامن الثروة في العالم التي كان الحائط الإسلامي يمنعه عنها.

إن الغرب استخدم في ذلك الصراع الكثير من الأدوات بدءا من الجيوش العسكرية وبعثات التبشير وانتهاء باستخدام طابور خامس من داخل الوطن الإسلامي من هؤلاء المغتربين المهزومين روحيا أمام الغرب والذين عملوا، كأدوات لعلمانية الغرب ولأطروحاته السياسية والقومية بالذات ضد وطنهم.

إن الغرب استخدم الحركة الصهيونية كجزء من أدوات تحقيق هذا المخطط بل وأخطر هذه الأدوات جميعاً، ويرى الشقاقي أن الحركة الصهيونية جزء أصيل من الهجمة الغربية بكل ملامحها، وأن الصهيونية بدورها رأت نفسها كحليف أصيل سياسياً وفكرياً للاستعمار الإمبريالي ضد ثروات الشعوب وللهجمة الغربية ضد الإسلام ووطنه.

***

ويرصد الدكتور الشقاقي « في وعي فذ العلاقة الجوهرية بين الاستعمار وبين حركة القومية العربية والتي أدت ممارساتها وخياناتها إلى نجاح الغرب في زرع الكيان الصهيوني في فلسطين.

يقول الشقاقي: « في ظل تلك المرحلة بدأت الاتصالات بين الشريف حسين ممثل الحركة القومية العربية والسير مكماهون ممثل صاحب الجلالة ملك بريطانيا، قدم الشريف حسين رؤيته للمستقبل ضمن تكوّن مملكة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية تضم المنطقة العربية شرق السويس والجزيرة العربية إلا أن مكماهون منعه الدخول في تفاصيل الحدود، وبعد إلحاح وافق على ذلك مستثنياً فلسطين وبعض أجزاء بلاد الشام الأخرى من الدولة المطلوبة ولم يقدم البريطانيون أية ضمانات حقيقية للأحلام القومية العربية ورغم ذلك دخل القوميون العرب الحرب إلى جانب بريطانيا وضد الدولة العثمانية، لقد كانت المملكة العربية التي أرادها الجيل الأول من القوميين العرب نكوصا للوراء عن الدولة الإسلامية الكبيرة والشاملة لعدة قوميات وفي ظل الحرب العالمية الأولى احتلت بريطانيا فلسطين وأعلن وعد بلفورد أو عرفه العرب ونصب المؤتمر السوري الذي ضم ممثلين عن سوريا الكبرى محاولين بذلك سبق الأحداث، وعندما هزمت حكومة فيصل أمام القوات الفرنسية تم قبوله وعائلته للتسوية البريطانية بإعلانه ملكاً على العراق، نسي ذلك الجبل من القوميين العرب الذي كانوا في أغلبهم ينتمون إلى طبقة كبار الملاك، نسوا إلى حد ما تلك الفكرة القديمة لتأسيس دولة عربية كبرى وتوزعت اهتماماتهم بين دولة سورية وبين أوطان صغيرة مستقلة، لقد وقف القوميون وكبار الملاك، في شرق المنطقة العربية من الوطن الإسلامي مع فكرة الاستقلال عن الدولة العثمانية كتعبير عن هزيمتهم الفكرية والروحية والنفسية أمام فكر الغرب القومي العلماني،وكتعبير أيضاً عن طموحاتهم باستقلال اقتصادي عن الحكومة المركزية في اسطمبول، إذ لا خوف من المستقبل ماداموا هم الذين سيحكمون دولة المستقبل تلك،هذا هو الإطار العام الذي حكم الصراع في المنطقة ككل بين الحربين العالميتين أو بين وعد بلفور والهجمة الأولى عام ٤٨ ».

وهكذا ضاعت فلسطين... أو قل بدأ ضياعها ثم استكمل جيل العلمانيين والتغريبيين الذين حكموا المنطقة تضييعها... وهنا يرصد الشقاقي تراجع فكرة الوحدة الإسلامية والوطن الإسلامي، وبروز فكرة القومية العربية ويرى أنه بين هذا التراجع وذاك الصعود كان ضياع فلسطين.

ويستكمل الشقاقي دراسة الظروف والأوضاع التي أدت إلى ضياع فلسطين فيقول: « صاحب نهاية الحرب الأولى ازدياد الهجرة الدولية إلى فلسطين بعد الاحتلال البريطاني وإعلان وعد بلفور مباشرة وقد تحركت الجماهير الفلسطينية بحسها التاريخي ضد الهجمة ولكن الوجهاء والملاك الذين قادوا الانفصال عن الدولة العثمانية متحالفين مع بريطانيا عادوا مرة أخرى وضمن ظروف تدهور سياسي وحضاري شامل ليقودوا الجماهير وحركتها فأنشئت الجمعيات في المدن الفلسطينية وقادها الوجهاء والتجار وقد عقد ممثلو تلك الجمعيات المؤتمر الفلسطيني الأول في يناير ١٩١٩ وكان عدد المؤتمرين ٢٧ منهم ١١ أصدقاء لبريطانيا و٢ أصدقاء لفرنسا من المستقلين و١٢ من أنصار الوحدة القومية العربية، وكان واضحا أن المؤتمر ورئيسه « موسى كاظم الحسيني » سيقفون موقف المهادنة من بريطانيا وأن اتجاه المؤتمر العام سيفهم الصراع على أنه صراع مع الصهاينة فقط وعندما أعلنت بريطانيا الانتداب على فلسطين وعينت الصهيوني هربرت صموئيل مندوباً سامياً لها في القدس ليسرع في تنفيذ وعد بلفور لقيام وطن قومي لليهود قام صموئيل بتشكيل مجلس استشاري له من اليهود والمسلمين والمسيحيين وكان من أبرز أعضاء المجلس من العرب « إسماعيل الحسيني وفريح أبو مدين وسليمان ناصيف وعبد الرزاق طوقان وهم جميعاً ينتمون إلى فئة الوجهاء والملاك أصدقاء بريطانيا،نفس هذه الفئة ستشكل الحزب الوطني بقيادة عارف الدجاني وراغب التشاشيبي وسليمان الفاروقي ليكون أداة ضد الوطن ومع بريطانيا، ولقد قام الفلسطينيون بثلاث انتفاضات دموية قبل مطلع الثلاثينات، كانت الأولى سنة ١٩٢٠ والثانية سنة ١٩٢٣،وكانت في ظل أطروحات نفس الزعماء ضد التواجد الصهيوني فقط، ولكن في عام ١٩٢٩ وعندما حاول اليهود الاقتراب من المقدسات الإسلامية في القدس ثارت الجماهير متجاوزة قياداتها ضد اليهود وضد بريطانيا ومؤسساتها الحكومية،لقد أصبح واضحا رغم تضليل الزعماء من الملاك والوجهاء أن الصراع ضد الهجمة بطرفيها بريطانيا والحركة الصهيونية معا وعلى رأس التنظيمات الداعية إلى مهاجمة بريطانيا كانت جمعية الشباب المسلم في حيفا ذات

الصلة الوثيقة بالشيخ القسام، وفي مطلع العام الحادي والثلاثين عقد في القدس ما سمي بالمؤتمر الإسلامي الذي سيطرت عليه نفس العناصر القيادية المرتبطة ببريطانيا، وبالتالي فإن المؤتمر رغم شمولية تمثيله للمسلمين في العالم من سنة وشيعة في المنطقة العربية والهند وإيران إلا أنه لم يستطع التقدم إلى الأمام، وعقب المؤتمر مباشرة أصبحت التيارات السياسية في الساحة الفلسطينية واضحة ومميزة، فقد حافظت العناصر القومية التقليدية على أفكارها ومنهجها في العمل ضمن حزب الاستقلال، عجاج نويهص وأسعد داغر وعزة دروزة وصبحي الخضرا وشكل الوجهاء أصدقاء بريطانيا حزب الدفاع الوطني « راغب النشاشيبي » وقدمت عائلة الحسيني رؤيتها الوسطية الوطنية ضمن الحزب الوطني الفلسطيني « جمال الحسيني » ومباركة المفتي « الحاج أمين الحسيني » وكان الحزب مزيجا من الأحلام القومية وآمال الاستقلال الوطني وشيئاً من الحس الإسلامي،ولكن تلك الاتجاهات لم تكن قادرة ـ نظراً إلى المواقع الفكرية اللاإسلامية- على تحديد جوهر الصراع والتقدم نحو حسمه وكان لابد للجماهير بوعيها الإسلامي وبحسها التاريخي أن تقدم رؤيتها ومنهجها فكانت حركة عز الدين القسام، ويستمر الصراع في تصاعده بين الجماهير من جهة وبريطانيا والحركة الصهيونية من جهة أخرى بينما قيادات الوجهاء مازالت تتسلق أكتاف حركة الجماهير كزعامة رسمية، وعندما تفجر الصراع بشكل شامل وعنيف سنة ١٩٣٦ تشكلت قيادة الثورة من عوني عبد الهادي، وأحمد حلمي باشا، وراغب النشاشيبي وجمال الحسيني وعبد اللطيف صلاح وحسين الخالدي « نفس الوجوه ونفس الممارسة فقد كانوا ممثلين لمرحلة بأكملها فعندما كانت الجماهير تقدم دمها على ساحة الجهاد كانوا هم خارج الساحة يقودون المعركة، وبعد ستة أشهر من الجوع والقهر والدم جاءوا هم وحلفاؤهم من الزعماء العرب في الممالك العربية » مصر والأردن والسعودية، والعراق« ليأمروا الجماهير بوقف المعركة لأن الصديقة بريطانيا ستتفهم مطالبنا.

والشقاقي هنا يضع ملامح المنهج الصحيح للمواجهة، هو يعري ويكشف مناهج أخرى تشكلت وما كان لها إلا أن تفشل في تلك المواجهة منهج الزعماء الوجهاء والعلمانيين وأصدقاء بريطانيا الذين يعزلون الهجمة الصهيونية عن منهجها

الأصيل وهو مشروع الهيمنة الغربي فيهاجمون الصهاينة ويتركون بريطانيا،أو حتى يثقون في وعود الصديقة بريطانيا التي هي ممثلة مشروع الهيمنة الغربي في ذلك الوقت فكيف نحل مشكلاتنا وننتزع حقوقنا بالثقة في عدونا الذي اعتدى على تلك الحقوق وسلبها وانتهكها، وهكذا كان هذا المنهج الفاشل والذي كان يتسلق على أكتاف الجماهير هو سبب تكريس ضياع فلسطين والاستمرار في منطق اللامعقول وفي المقابل كانت الجماهير تدفع الدم بالحس الإسلامي والوعي التاريخي، وتعرف شيئا فشيئاً طبيعة المعركة وكونها معركة ضد الهيمنة الغربية ورأسها الصهيوني، وبدءا من عام ١٩٢٩ بدات الجماهير تهاجم إنجلترا والصهاينة علي حد سواء، ويرجع ذلك إلى طليعة مجاهدة اكتشفت طبيعة الصراع في ذلك الوقت وهي جمعية الشباب المسلم ذات الصلة بالقائد التاريخي الفذ عز الدين القسام... وتعتبر هذه الطليعة المؤمنة المجاهدة الواعية بجوهر الصراع ويعتبر رمزها التاريخي الشهيد المجاهد عز الدين القسام بمثابة العمق التاريخي لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين ورمزها التاريخي أيضا الدكتور فتحي الشقاقي وهذه وتلك أدركت أن المواجهة شاملة مع مشروع الهيمنة الغربية برمته ومع رأس الحربة في ذلك المشروع « الصهاينة » وبأن الكفاح الجماهيري المسلح والواسع والنضال السياسي ضد الغرب كفكر وثقافة وقيم ووجود عسكري وسياسي هو فريضة شرعية وضرورة استراتيجية وشرط أساسي لصحة طريق المواجهة لاستعادة الحقوق وحسم الصراع الحضاري، طال الزمن أم قصر.

***

ويستمر الدكتور فتحي الشقاقي في تحليله الفذ قائلاً « وقد شهدت الأربعينيات الذروة الأولى للصراع على فلسطين وبحلول عام ١٩٤٧ كان الاستعمار الغربي بكل قواه ضمن لحظة حاسمة من الهجمة على الوطن الإسلامي يقف وراء الحركة الصهيونية ومعها من أجل قيام إسرائيل،وعلى الجانب الآخر كانت الزعامات الملكية العربية ووجهاء وملاك فلسطين قد نشأوا في أحضان الهجمة الغربية،وقادوا قبل خمسين عاما عملية تحطيم الدولة الإسلامية ويريدون اليوم مواجهة الحركة

الصهيونية وهو أمر يثير الدهشة وكان يومها أيضا بإمكان الجماهير الإسلامية أن تقدم لأمتها وجها حقيقيا وأصيلا ولذا فقد دخلت الفصائل الإسلامية الإخوانية من مصر والأردن وسوريا إلى ساحة الصراع وحين كان الجميع يهزمون ويتراجعون كان الإسلاميون يثبتون ويستشهدون ولكن المرحلة كانت أكبر من طاقتهم.

واستطاع التحالف الصهيوني الغربي في النهاية إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين كتجسيد مجتمعي وحي ومستمر للهجمة الغربية الشرسة ضد الوطن الإسلامي، وسقطت كل الرؤى القديمة لمستقبل المنطقة بعد هزيمة الدولة الإسلامية، سقطت لأن قياداتها لم تخض في الحقيقة معركة ضد الغزو، فقد كانت في جانبه بقصد أو بدون قصد وكانت تتزعم معركة زائفة لصراع لم تع جوهره فحتى سنة ١٩٢٩ كانت تلك القيادات تصور اليهود فقط كطرف للصراع بينما الجماهير بحسها الإسلامي تشعر أن بريطانيا هي الطرف الآخر وحين دعا أئمة المساجد الجماهير إلى عدم دفع الضرائب لحكومة بريطانيا الكافرة كتصعيد للصراع وقفت القيادات من الملاك والوجهاء ضد الدعوة خوفا على أملاكهم من رد الفعل البريطاني وحين تقدمت الحركة الإسلامية الثورية بقيادة الشيخ عز الدين القسام رافعة السلاح في وجه بريطانيا لم تتكلف تلك القيادات المزعومة مجرد السير في جنازة الشهداء، وفي حمى معارك النكبة الأولى كانت الجماهير تستشهد وهم يتفاوضون وكانت بإسلامها مصممة على مواصلة الصراع وهم يوقعون اتفاقات الهدنة وكان لابد أن تسقط أنظمتهم الواحد تلو الآخر وأن تسقط أطروحاتهم ومناهجهم فقد قادوا المرحلة من بداية القرن إلى النكبة الأولى فلم يعطوا الأمة إلا الجوع والتضييع وفقدان الذات وتكريس قواعد الهجمة الغربية الاستعمارية على أرض فلسطين على طول الوطن الإسلامي وعرضه بأحزابهم وأفكارهم وقيمهم وهزيمتهم، كانوا جزءاً من الهجمة لا يتجزأ.

وفي الحقيقة فإن الإنسان أمام هذا الوعي الفذ والتحليل الدقيق لا يستغرب أن يكون من اكتشف هذه الحقائق... هو ذاته من يحولها إلى حركة جهاد تحمل السمات والملامح الصحيحة للمواجهة، بل وأنه يستشهد دفاعاً عنها، ومن يستحق الشهادة

أكثر من الشقاقي.

اكتشف الشقاقي هنا، أو قل أكد اكتشافاته السابقة وأضاف إليها اكتشاف وأكد أن التحالف الغربي هو الذي أقام دولة إسرائيل على أرض فلسطين كتجسيد حي ومجتمعي ومستمر للهجمة الغربية الشرسة ضد الوطن الإسلامي...وكان من الطبيعي والحال هذه، أن تكون المواجهة ضد مشروع الهيمنة الغربي برمته وضد التجسيد الحي والمجتمعي والمستمر للهجمة الغربية الشرسة ضد الوطن الإسلامي «إسرائيل» ولكن هل كان يمكن للقوى والرموز والزعامات التي تربت ونشأت في أحضان الغرب وتحمل نفس قيمة إن لم تكن خائنة أصلا أن تواجه مشروعا هي ذاتها جزء لا يتجزأ منه..

وهل كان هناك نتيجة أخرى يمكن أن يوصلنا إليها هؤلاء الذين تربوا في الغرب سوى قيام إسرائيل في ١٩٤٨.

وهل هناك من يواجه إلا الجماهير بحسها الإسلامي وبوعيها التاريخي..ولكن أين الطليعة القادرة على شد الجماهير وتعبئتها؟ وبعد القسام أن كان الإخوان مثلا؟!. ولماذا توقف العمل الصحيح وفقا للرؤية الصحيحة؟ اللهم إلا في بعض حالات لا يمكن أن تشكل ظاهرة، ولماذا تركت الجماهير تحت رحمة قوي هي جزء من الهجمة ذاتها تتسلق على أكتافها وتتاجر بدمها وتتفاوض على مصالحها وتصل إلى حلول وسط تحقق لها مصالحها الطبقية وتحصن ممتلكاتها الاقتصادية خوفا من بريطانيا وغيرها، أو حتى تقتسم فئات النهب مع مشروع الهيمنة الغربي ثم تدعي الثورية.

وفي الحقيقة فإن كل الحقائق التي رصدها الشقاقي هنا، كانت ولا تزال منهاجا مفسراً لكل الأحداث والقوى والمعادلات حتى يومنا هذا.

***

ويستطرد الشقاقي قائلاً:« كان من الطبيعي أن تتصدى الحركة الإسلامية لقيادة المرحلة التالية إلا أن ظروف نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات السياسية

والاجتماعية والاقتصادية وعنف التدخل الغربي في الوطن الإسلامي لم تسمح لها بذلك، وقد انتهت النكبة الأولى بتوجيه ضربات قوية إلى آمال الجماهير وإلى إسلامها وإلى أرضها وتقدمت إلى السلطة العناصر العسكرية في انقلابات متواصلة تقدم أطروحاتها القومية الجديدة وتوثق علاقتها بالغرب سواء الرأسمالي أو الشيوعي، وتدعي أنها جاءت لتعيد إلى الأمة وحدتها ولتبني مستقبلها ولتحقق لها العدل الاجتماعي والرفاهية والتقدم ولكن انتماءها القومي العلماني في الخمسينيات وانتماءها الاشتراكي العلماني في الستينيات كانا يحددان موقعها تماما من قضية الصراع على أرض الوطن الإسلامي، لقد كانوا أطروحة جديدة فقط للهجمة الغربية ضد الإسلام ومع الغرب دائما سواء الشيوعي أو الرأسمالي ضد استقلال أمتهم وكانوا مع القهر والاعتقال والاغتيال ضد سلام الأمة وحرية مفكريها ورجالها، وكانوا مع رفاهيتهم وأرصدتهم ضد طموحات الأمة في النمو والتقدم والرفاهية، كان هذا هو إطار المرحلة التالية من النكبة الأولى في ١٩٤٨ إلى النكبة الثانية في عام ١٩٦٧ وحتى على النطاق الفلسطيني البحت فقد نمت نفس الاتجاهات الممثلة للأنظمة العسكرية العربية وفي حمى الغياب القاتل للوعي في تلك المرحلة غاب مرة أخرى الوعي الجوهري والتاريخي الصحيح للقضية الفلسطينية بل أن مختلف الاتجاهات الموجودة الآن على الساحة الفلسطينية ضمن إطار منظمات المقاومة تعود بأصولها إلى تلك المرحلة وربما قبلها بقليل، وكانت النكبة الثانية في صيف عام ١٩٦٧ انهيارا شاملا للثوريين الاشتراكيين من العسكر ولأنظمتهم ولمناهجهم، لقد سقطوا أولاً حين ضاعت وعودهم في ظل ممارستهم وسقطوا ثانيا حين قدموا بقية الأرض والتاريخ فداء لوجودهم وبقاء تسلطهم على روح أمتنا، وكان لابد عقب النكبة الثانية أن تعود الأمة إلى أصالتها وإلى حسها الإسلامي ووعيها التاريخي وتتلمس به طريقها بعد سنوات التضييع والسقوط، كان لابد أن تدرك أي منحدر خطر قد وصلت إليه بعد أن ضيعوا هويتها الإسلامية وبعد أن أسلمت قيادها إلى أعدائها وتلاميذهم الشرعيين، ومع مطلع السبعينيات كان المد الإسلامي الشامل في الوطن الإسلامي هو الرد الطبيعي والعلمي على المراحل السابقة التي أدت بأمتنا إلى نكبتين مروعتين في أقل من عشرين عاماً، وتكشفت

مساحة الصراع عن تيار إسلامي متصاعد يتقدم لحسم هذا الصراع لصالح أصالة الأمة واستقلالها وتقدمها الحقيقي وعلى الجانب الآخر كانت تقف قوى الغرب الاستعمارية وامتدادها من أنظمة وأحزاب قومية واشتراكية ووطنية بجانب إسرائيل كتجسيد للهجمة ضد الإسلام.

وبالطبع فإن الدكتور الشقاقي قد أصاب كبد الحقيقة حينما رصد التيارات الحاكمة في الوطن الإسلامي، والتي هي امتداد لنفس التيار الذي نشأ في أحضان الغرب وهو جزء لا يتجزأ من الهجمة الغربية على الوطن الإسلامي، وبالتالي فهو غير قادر على المواجهة وكان الطبيعي أن يقودنا هؤلاء إلى نكبتين مروعتين في أقل من عشرين عاما.. وبديهي أن الشجرة العلمانية التغريبية الخبيثة « القومية الإقطاعية » ما كان لها إلا أن تنتج أجيالاً أخرى من نفس الشجرة القومية العسكرية ثم القومية الاشتراكية « وذلك لتجديد شبابها والاستمرار في سياسة الخداع وامتطاء رقبة وأكتاف الجماهير، بل أن التطور الذي حدث في القومية الإقطاعية تجاه القومية الاشتراكية كان جزءا من الخداع وإلهاء الجماهير بقضايا أخرى غير قضية صراع الوجود والاستمرار في تنفيذ المخطط الغربي وكان هذا التطور باتجاه الاشتراكية القومية بتشجيع من الغرب وإسرائيل بالطبع.

ولكن لنا بعض الملاحظات على رؤية الدكتور الشقاقي بخصوص الحركة الإسلامية... فنحن لا نرى معه أن ظروف نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينات لم تسمح للحركة الإسلامية بالتصدي لقيادة المرحلة كما كان متوقعا بعد النكبة الأولى، لأنه أولا ليس هناك ظرفا يمنع حركة من التصدي لتحدياتها مهما كان كبيرا، ولكن هذا الظرف يحقق نتيجة عندما تكون البنية الداخلية للحركة قابلة لهذا..وعلى طريقة مالك بن نبي في مفهوم القابلية للاستعمار تقول إنه كان هناك داخل بنيان الحركة الإسلامية قابلية للاستبعاد، أو التخلي عن دورها، بل إن ما حدث لها بعد ذلك لم يكن إلا نتيجة هذه القابلية...وإذا تخلت حركة عن دورها الرئيسي وتحدياتها الجوهرية فإنها تنجذب تلقائيا إلى التطرف والتكفير وغيرها من الأمراض التي أصابت الحركة الإسلامية فيما بعد، وفي رأيي أن هناك خللا داخليا أدى إلى

هذا الأمر وهو أن الحركة وخاصة الإخوان المسلمين اعتبروا التنظيم أهم من الموقف والجماهير، واعتمدوا على الصف والكادر ولم يعتمدوا على الجماهير واستبدلوا قوة الموقف ومبدئيته بقوة التنظيم والمحافظة عليه مهما كان الثمن غاليا على مستوي الموقف والمبدأ والشهادة على المرحلة.

وكذلك فإن هذا العيب الداخلي أيا كان وذلك التخلي أو القابلية للاستبعاد هما اللذان أديا إلى ترك الأمة تقع في براثن العسكر وأبناء المدرسة الاستعمارية من حكومات وأحزاب وقوى ومؤسسات بل وأنه تتعلق هذه الرموز في غياب القيادة الطبيعية للأمة، وإذا تركنا الشعلة تسقط فمن الطبيعي أن يلتقطها المزيفون ويمارسون بها كل الجرائم ويجرون الأمة إلى نكبات مروعة.وهكذا فإن صعود العسكر والقمع الذي طال الإسلاميين والأمة عموما على أيديهم لم يكن هو السبب في استبعاد الإسلاميين عن قيادة الجماهير نحو تحدياتها الصحيحة، بل العكس صحيح تماما، فإن تخلي الإسلاميين وخاصة الإخوان عن روح المبادرة والتركيز على القضية الأم والسير في متاهات قوة التنظيم وغيرها هو الذي قاد إلى حكم العسكر وأدى إلى القمع والنكبات وهكذا فالإسلاميون مسئولون أمام الله ثم أمام الأمة عما حدث... وعموما فهناك حقيقة لا يمكن تجاهلها وهي أنهم أصلا لم يجربوا ذلك بعد ١٩٤٨، ولو جربوا وفشلوا لكان لهم العذر وحتى الدكتور الشقاقي يعرف وكان يثق في الجماهير، فالعيب لم يكن في الجماهير بل في غياب الطليعة، وتجربة الدكتور الشقاقي أيضا تؤكد ذلك، فالظروف الموضوعية التي نشأ فيها تنظيم الجهاد الفلسطيني أصعب كثيرا من الظروف الموضوعية في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات،فلماذا نجحت تجربته؟، لأنه حاول بصدق وإخلاص،فقط لا غير ولو كانت الحركة الإسلامية في نهاية الأربعينيات قد انحازت إلى جماهير الأمة وفقرائها و كادحيها وأصحاب المصلحة الحقيقية في النضال ووقفت موقفا ثوريا ضد الوجهاء والإقطاعيين وأصحاب المصالح المتحالفون مع الاستعمار بدلا من محاولة استدراجهم إلى صفها ـ وهيهات ـ لو كانت الحركة الإسلامية بعد ١٩٤٨ قد نفذت عمليات جهادية وفدائية واستشهادية ضد الكيان الصهيوني لما حدث أصلا ما حدث في طول المنطقة وعرضها، والصحيح والموضوعي أنه منذ ١٩٤٨ ـ

وحتى ١٩٥٤ أو على الأقل حتى عام ١٩٥٢ أي أربع سنوات كاملة، كانت الظروف المحلية والدولية شديدة السهولة فالحكومات العربية كانت ضعيفة للغاية ولا تقدر ولا تجرؤ على منع العمل الفدائي الإسلامي ضد الكيان الصهيوني، ولا كانت إسرائيل قد حققت قوتها، ولا كان الغرب بحكم حالة الانهيار والتداعي التي أصابت قوي الاستعمار القديم «إنجلترا وفرنسا» وصعود الاستعمار الجديد أمريكا» والاتحاد السوفيتي قادرا على منعها لأنه كان في أضعف حالاته أما وقد أضعنا الفرصة فلنعترف بالمسئولية عن هذا الضياع أولا حتى لا تكرس الأسباب التي أدت إلى هذا الضياع، ثانياً ومن المؤسف أنه بعد ١٩٦٧ ومع إفلاس الأنظمة التغريبية تماماً وصعود الحس الإسلامي الجماهيري بطريقة مذهلة تؤكد حيوية الأمة، راحت الحركة الإسلامية طول السبعينيات تهتم بالشكل على حساب الجوهر، وأصيبت بعدوى الوهابية والسلفية ولم تقدم ما يكافئ دورها الطليعي ولا مسؤوليتها أمام الله في القضية المركزية وجوهر الصراع...إلى أن قيض الله للأمة فتحي الشقاقي ليعيد للحركة رسم خريطة وسلم الأولويات الذي كان مقلوباً.

***

يصل الشقاقي إلى بلورة رؤيته للقضية الفلسطينية قائلاً:« إن القضية الفلسطينية بما وصلت إليه جزء من ملامح التيارات اللاإسلامية التي تعاقبت على التصدي الانتهازي لقيادة حركة الجماهير أو التي تسلمت السلطة طوال الفترة التالية لهزيمة الدولة الإسلامية في مطلع هذا القرن، تلك القيادات التي تمثل التراجع المستمر أمام التحدي الصهيوني الغربي، الذي جاء ليلغي التاريخ ويسقط وعي الأمة ويهدم الحائط الإسلامي الصلب ويستولي على الأرض والثورة والمستقبل، كما أن فشل تلك القيادات في سنة ١٩٤٨ ثم في سنة ١٩٦٧ ثم عجزها عن مواصلة الصراع كنتيجة لعجزها عن فهمه قد أدى بها كما نرى الآن إلى قبول أي شيء كحل للقضية ويدل على ذلك ما نراه من ممارسة الجميع وإعلانهم عن مشاريعهم لحل القضية ابتداء من الأنظمة العربية بكل أصنافها إلى من يدعون قيادة الفلسطينيين بكل انتمائهم ويبدوالإسلام وحده كدين، والإسلام وحده كتاريخ وحضارة ونظام وممارسة،

القادر على مواجهة الأزمة وفهمها وقيادة حركة الصراع وحسم ذلك أنه هو الطرف الحقيقي والمستهدف وهو وعي الأمة وحسها.

ويضيف الشقاقي:« إن الهجمة اللاإسلامية وطرفها الأساسي وهو الغرب لم يستطع أن يقيم إسرائيل ككيان كامل فكرا ونظاما، وحضارة وهدفا، إلا عندما استطاع أن يثبت مؤسساته وأجهزته وتياراته في منطقة الوطن الإسلامي وحولها وكانت إسرائيل بالتالي جزءا مهما ومركزياً من هجمته على الوطن الإسلامي. وأمام الحركة الإسلامية اليوم إما الوعي للهجمة والتصدي لها بجميع جوانبها وإمكانياتها وأدواتها أو أن تبقى في مكانها تراوح بين التقدم مرة والتراجع مرات،إما أن تعي جوهر الصراع تماما ودور القضية الفلسطينية فيه أو أن تتعرض لأسوأ الحقب على أرض الوطن الإسلامي تلك التي تلوح في الأفق، الحقبة الإسرائيلية ».

(٢)

المواجهة الحضارية الشاملة
في مواجهة مشروع الهيمنة الغربي

الإسلام شكل لهذه الأمة حضارة متميزة، ومنظومة ثقافية محددة وشخصية حضارية محددة الملامح،وهي حضارة تقوم على التوحيد والعدل والحرية،وحضارتنا تدعو إلى التعاون والاستفادة من تجارب الآخرين،ولكنها بالطبع ترفض الذوبان والخضوع للمنظومات الحضارية الأخرى،والأمر أشبه بشجرة إذا قطعتها مثلا بدعوى تثبيت شجرة أخرى فهذا ليس تعاونا وكذلك إذا طعمتها كما هو معروف في علم النبات،بشجرة أخرى ليست من عائلتها فإنها لا تستجيب ويصبح الأمر كله هراء وليس إلا من قبيل القضاء على شجرتنا الحضارية والصحيح أن نستفيد بتجارب الآخرين في طرق تنمية هذه الشجرة وتغذيتها والحصول على أحسن الثمار عن طريق تحويل هذه التجارب والأسمدة والمخصبات في داخل أنسجة شجرتنا إلى شيء جديد مرتبط بطبيعة وشخصية هذه الشجرة، أي هضمه وتحويله داخل النسيج الحي لشجرتنا الحضارية إلى جزء لا يتجزأ من شجرتنا الحضارية وليس تشويها خارجيا لها أو محاولة للصق قيم حضارية خارجية عنها ستلفظها بالطبع أو تسبب لها مشاكل تضعفها أو تؤدي حتى إلى موتها،إذن فنحن دعاة تعاون حضاري بهذا المفهوم أما المفاهيم الأخرى فهي محاولة لخداعنا وإخضاعنا تحت ستار التعاون الحضاري.

ونحن الآن أمام حضارة غربية لها القوة والسيادة علي العالم ولها منجزاتها العلمية والتقنية ونحن لا نرفض بالطبع أن نستفيد من عزمها ومنجزاتها التقنية بشرط أن يدخل ذلك في نسيجنا الحضاري ويتم هضمه وتحويله وفقا لعملية داخلية بحتة.

ولكن هل تقبل الحضارة الغربية بهذا النمط من التعاون،إنها تقوم على القهر والنهب والعنف والعنصرية وحضارتنا تقوم على التوحيد والحرية والعدل

واللاعنصرية،ولا يمكن بداهة أن يحدث تلقيح بين شجرتين حضاريتين مختلفتين إلى هذه الدرجة، والحضارة الغربية تريد الهيمنة والقضاء على الحضارة الإسلامية لأسباب كثيرة،فهل نقبل الخضوع لها والاندماج فيها؟!. والحضارة الغربية ترفض حتى إعطاء الآخرين وخاصة المسلمين علومها التجريبية ووسائلها التقنية ـ برغم أن العلم تراث إنساني،والحضارة الغربية نفسها استفادت من علوم وتقنية الحضارة الإسلامية أيام ازدهارها،ولعل محاكمة المهندس المصري عبد القادر حلمي في أمريكا بتهمة سرقة التكنولوجيا الأمريكية خير دليل على ذلك.

إذن ليس هناك من سبيل أمامنا سوى انتزاع العلم انتزاعا، ليس هناك سبيل للتعاون، بل للمواجهة ـ ليس رفضا من ناحيتنا للتعاون ـ بل لأن الحضارة الغربية لا تقبل بالتعاون الحر، بل تريد الهيمنة علينا وإخضاعنا بل و إبادتنا حضاريا وبشريا، الموقف الصحيح هو المواجهة، والمواجهة تكون برفض الاندماج في حضارة الغرب، والتأكيد على الذات والهوية الحضارية لأمتنا وحشد الأمة كل الأمة لمناهضة الاستعمار والصهيونية وتحقيق النهضة، وانتزاعها انتزاعاً.

والله تعالي قد رسم لنا هذا الطريق في القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾. هذه الآيات الكريمة تصف أحوالنا مع الغرب واليهود الآن، فالتحالف بين اليهود والنصارى لم يحدث إلا في السنوات الأخيرة، وكان العداء بينهما أمر ثابت بل وتعرض اليهود للاضطهاد دائما على يد الغرب وآخرها أفران هتلر، إذن فالآية تصف الأحوال المعاصرة وترسم الطريق الملائم لهذه الأحوال، وهو رفض الاندماج في حضارتهم وعدم موالاتهم، والآيات تتحدث أيضاً عن هؤلاء الذين ينتشرون بيننا الآن ويقولون لنا أنه لا يمكن مواجهة الغرب وإسرائيل لأن هناك عدم تكافؤ كبير جدا في القوة بيننا وبينهم وبالتالي علينا أن نخضع ونندمج في الحضارة الغربية، ولكن الله تعالي يطمئننا أن الصبر والصمود والمواجهة هو الطريق الصحيح لأن الله تعالى سوف يأتي بالفتح

أو بأمر من عنده.

وفي كل الأحوال فإن الخضوع والاندماج يعني بالنسبة لنا الموت الحضاري، والمواجهة قد تعني الموت وقد تعني الكثير من الخسائر، وقد تعني النصر أيضاً في النهاية، ولكن الخضوع يعني القضاء على البذور الكامنة بالإضافة إلى الساق والفروع، أما الصبر والمواجهة فقد يعني دمار الفروع والسيقان، ولكن تظل البذور كامنة تحت التربة فتعطي مرة أخرى في ظروف أفضل ساق جديدة وفروع جديدة، وتنمو الشجرة من جديد.

وهكذا فإن المواجهة الحضارية الشاملة هي إحدى سمات المشروع الحضاري الإسلامي، والمواجهة الحضارية الشاملة هي الطريق الوحيد للانعتاق نحن وغيرنا من المستضعفين في العالم من مشروع الهيمنة الغربي..

***

كان الدكتور فتحي الشقاقي من أشد المهتمين ببناء رؤية ونظرية للمواجهة ضد مشروع الهيمنة الغربي، وليس لتحرير فلسطين فقط، بل لتحرير العالم العربي والإسلامي كله، بل أيضا لتحرير كل ضحايا الحضارة الغربية وهكذا، كانت نظرية الدكتور فتحي الشقاقي بمثابة لاهوت تحرير إسلامي لكل المستضعفين في العالم من الهيمنة والنهب والقهر الغربي، ورؤية الشقاقي لمسألة الهيمنة الغربية وقضية الاستقلال والتبعية رؤية ثرية تضم ما هو تاريخي وما هو سياسي وما هو استراتيجي بل ووضع التصورات لوسائل وآليات المواجهة.

فمن الناحية التاريخية يقول الشقاقي « استؤنف الرد الأوروبي العسكري على العالم الإسلامي منذ القرن السادس عشر من قبل أسبانيا والبرتغال ثم عادت الكرة في القرن التالي على جبهة المواجهة مع روسيا القيصرية التي توسعت في القرم ثم عادت في القرن الثامن عشر لتستولي على معظم القرم وعلى رومانيا وشواطئ البحر الأسود ومنذ مطلع القرن التاسع عشر بدأت خسائر المسلمين الواحدة بعد الأخرى فقد انسحب العثمانيون من اليونان وخسروا معظم المغرب العربي ومصر

والسودان وسواحل البحر الأحمر وقبرص لصالح بريطانيا وفرنسا، في حين استولت الأولى على الهند وساحل الخليج وبحر العرب وعدن، وما إن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى كان العالم الإسلامي كله محتلاً عدا السعودية وتركيا الحديثة وإيران « منبر الشرق العدد ٨ يوليو ١٩٩٣ ».

وبعد أن يستعرض الدكتور الشقاقي المراحل التاريخية للهيمنة الاستعمارية على بلادنا يصل إلى المرحلة الحديثة ويحددها بأن الاستعمار استهدف تجزئة العالم الإسلامي وخاصة قلبه العربي إلى وحدات متصارعة مقطوعة عن بعضها البعض يشعر كل منها بالحاجة إلى الأجنبي، وتسليمه مقاليد دول الاستقلال إلى نخبة متغربة، أو صديقة أو عملية للعواصم الغربية الاستعمارية وإحاطة هذه النخبة بقطاع واسع من الكتاب والصحافيين والتجار ورجال الفكر والتعليم والإدارة الذين لا يعرفون مرجعية لهم سوى المرجعية الحضارية الغربية، سواء كان ذلك بحسن نية أو سوئها، ومنع المنطقة وخاصة لكياناتها الكبرى سلماً أو حربا من أهداف النهوض المدني وتحقيق المنعة العسكرية واستغلال الثروات لصالح الشعوب ومستقبلها، بل قامت الدول الاستعمارية وما زالت بامتصاص خيراتنا، كما استخدمت القوى الغربية ثقلها الصناعي وسيطرتها على المنظومات النقدية الاقتصادية العالمية لإحكام ارتباط اقتصاد بلادنا بعجلة الاقتصاد والنقد الغربي، ثم إنشاء دولة إسرائيل كضمان للممرات الاقتصادية في المنطقة ثم حارس لنظام التجزئة وأداة قمع في يد السيطرة الغربية ويراد لها في المرحلة القادمة من خلال مشروع السلام والتطبيع الشامل معها أن تدعم النخب المغتربة وقيمها وأخلاقها في بلادنا وأن تساهم في السيطرة على أسواق المنطقة وثرواتها.

وهكذا يحدد الشقاقي آليات مشروع الهيمنة الغربية وأدواتها من التجزئة إلى منع نهضة المنطقة سلماً أو حرباً، إلى امتصاص الثروات بأكثر من طريقة ووسيلة، إلى إقامة دولة إسرائيل، ليس هذا فحسب بل إن الشقاقي يعود فيكشف آليات أخرى للهيمنة أكثر تعقيدا من خلال ضرب نظامنا الاجتماعي الذي حرس بلادنا لمدة طويلة متمثلا في العلماء ونظام الحرف والأوقاف إلى إقامة أنظمة اجتماعية تابعة

تحت شعار التحديث، ويرصد الشقاقي أيضا فشل المشروع النخبوي لأنه اعتمد على توفيق وتركيب مستحيلين بين موروثنا الفكري وقيم أوروبا الجديدة وأنه غاب عن هؤلاء أن نهوض الأمم لابد أن يقوم على قيم أساسية أصيلة وأن أوروبا الجديدة كانت تحمل مشروعا للاستعمار والهيمنة والسيطرة وأنها لن تسمح لعالم الإسلام أن ينهض من خلال الاستعانة بها صناعيا وإداريا وعسكريا ثم يرصد الشقاقي مشروعا آخراً فاشلا وهو مشروع ينادي بالتخلي عن كل موروث والخضوع الكامل لقيم الغرب ومنظومته، ويرى الشقاقي أن هذا الخيار يؤدي إلى انتهاء الأمة بأكملها وانقراضها حضاريا أو ثقافياً وربما بشرياً.

ويهتم الشقاقي بإبراز كون إسرائيل جزء من مشروع الهيمنة الغربي فيرصد إدراك صناع القرار الأوروبيون في لندن وباريس وفيينا وبطرس بورج الأهمية الجيوبولتيكية لقوى المتوسط الجنوبي الشرقي أي مصر وفلسطين وأن تأمين المشروع الاستعماري يستدعي تأمين المفصل المصري الفلسطيني ومن هنا بدأت الدعوى لإقامة كيان قومي لليهود في فلسطين على يد رئيس وزراء بريطانيا بالمرستون، وذلك قبل نصف قرن من تأسيس الحركة الصهيونية.

وفكر في ذلك نابليون من قبل في نهاية القرن الثامن عشر في إطار مشروعه الاستعماري.

ويرى الشقاقي أن التبعية نظام متماسك، وأن من الضروري أن نعي أنه لا يمكن تشبيه نظام التبعية بالحبال التي تربط بلادنا بالخارج، بل الأصح أن تشبه بشبكات متداخلة، والأكثر صحة أن نراها كشبكة من الأوعية الدموية تمتد في كل أجزاء حياتنا وبلادنا وتتغذي من مائنا وهوائنا وتعيش لصالح الغير، ولأنها شبكات متسعة متشعبة عميقة الجذور فلا يمكن التخلص منها دفعة واحدة أو في عقد واحد أو اثنين، وباعتبارها متصلة بالنظام العالمي كله، عالم سيطرة الغرب الأطلسي على آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية وعلى ما يسمى بالمؤسسات الدولية فإن إنجاز مشروع تقويضها لابد وأن يعتبر مشروعا عالميا.

وهكذا يصل الشقاقي إلى أن مشروع الهضيمة الغربي عالمي، ومواجهته ينبغي أن تكون عالمية،وهي دعوى إلى إقامة تحالف شعبي واسع وجماهيري يضم العرب المسلمين وكل المستضعفين في العالم ، وهكذا فإن الشقاقي هنا هو صوت المستضعفين في مواجهة مشروع الهيمنة الغربي وهو داعية إلى ما يمكن أن نطلق عليه لاهوت تحرير إسلامي مقدم لكل العالم للنهوض والتحرر من الغرب لأن ثورة الانعتاق العالمي من الغرب لابد لها من جذر ثقافي لا يكون من داخل المنظومة الحضارية الغربية وإلا كان تكريسا للتبعية وإجهاضاً لحلم الثورة على الهيمنة الغربية، إذن فلا بد أن يكون هذا الجذر هو الإسلام. الذي هو عالمي بقيمه وصالح نظرياً بأيديولوجيته أن يكون جذرا ثقافياً للثورة العالمية التي تضم كل مستضعفي العالم.

ويؤكد الشقاقي على عدد من الحقائق الهامة في هذا الصدد فيقول: « إن تماسك نظام التبعية يستدعي الوعي بأن عملية الاستقلال لابد أن تواجه دوائر التبعية جميعاً، كلا على حدة ومعاً في الآن نفسه ـ وأن استقلالا سياسيا بدون التخلص من التبعية الثقافية وبدون نمط مستقل للتنمية سرعان ما سينهار تحت وطأة الضغوط وأن أي محاولة للاستقلال الاقتصادي ولامتلاك ناصية القرار السياسي في ظل دولة التجزئة سيكون ضربا من المناورة مع التاريخ كما أن محاولة إيهام الذات بأن الكيان الصهيوني محدود الخطر بمنطقة جغرافية وعلى شعب معين هو انحراف في رؤية التاريخ والواقع على السواء إذ أن استمرار بقاء هذا الكيان خطر على الناس وعلى ثقافتهم وعلى خياراتهم في التنمية والنهضة وأن مشروع الاستقلال في النهاية هو مشروع تغيير ميزان القوي العالمي أي هزيمة نظام الهيمنة وإعادة دول المنظومة الغربية إلى حجمها الحقيقي ومساعدة شعوبها ـ سلما أو حرباً ـ على التخلص من رؤيتها المشوهة لنفسها وللعالم، الرؤية القائمة على مركزية الغرب وعلى الثقافة العنصرية وعلى مفاهيم سيادة الرجل الأبيض، وهو يستدعي تحالفا عالميا بين المظلومين، وأن يكون مشروع استقلالنا ذا ارتباط عميق باستقلال الشعوب الأخرى

ويرى الشقاقي « أن المسألة الأساسية التي يجب على قادة الأمة وعلمائها وزعمائها أن يروها هي أن النهضة والاستقلال لا يمكن أن يتحققا بمجرد نشر وعي

وثقافة الاستقلال، وأن النهضة هي متغير على أرض الواقع وفي داخله ولابد أن تقترب الأمة وقادتها وزعماؤها من ملامح هذا الواقع بمثابرة واستعداد عميق لتضحية وإيمان أوسع بأن ظهرها على الجدار، وكما ضرب النحات في الصخر فإن كل متغير مهما صغر في الواقع يأخذنا قدما إلى مرحلة التشكيل المبدع في صورته الأخيرة ولكن وفي مراحل عديدة سيكون دمنا هو البديل عن عرق النحات».

ويهتم الشقاقي اهتماما خاصا بالنظام العالمي للمبادلات الاقتصادية الذي يحقق أكبر قدر ممكن من النهب لصالح الغرب على حساب شعوب أمم وقارات ودول بأكملها، ويرى الشقاقي أن الغرب نهب العالم بانتظام منذ الحروب الصليبية وحتي الآن حيث نجح الغرب في استنزاف ثروات قارات ثلاث هي آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، بما في ذلك الثروات المادية والإمكانات البشرية والثقافية، وتكديس هذه الثروات في الدول الصناعية الغربية، وأن النظام العالمي الجديد وبعد حرب الخليج بالذات ـ يستهدف مزيدا من النهب للدول الفقيرة عن طريق مجموعة من الآليات الاقتصادية مثل زيادة مديونية الدول الفقيرة، مزيد من الاستنزاف للثروات الطبيعية وتدمير البيئة، مزيد من الاحتضار للزراعة،وبالتالي المزيد من النزف السكاني للريف وما يتبعه من اكتظاظ مديني هائل في محيط بيئوي لا يحتمل، مزيد من البطالة وتفشي الطفيلية، مزيد من الارتفاع في معدلات التضخم، ومزيد من الاستقطاب الاجتماعي بين أقلية من السكان تستأثر بمعظم الدخل القومي مقابل أكثرية متسعة تعيش تحت خط الفقر والجوع، مزيد من اضطرابات اجتماعية لا تنتهي حيث ستجد الأنظمة نفسها في مواجهة مع الشعب وبالتالي تكون أكثر حاجة إلى الاعتماد على الغرب في تامين النظام واللجوء إلى مزيد من القمع والتبعية...

(٣)

عز الدين القسام وعز الدين الفارس

يحلو لبعض الحركات أن تزعم أنها الحركة الأم، وأنها بالتالي هي التي بدأت مسيرة الحركة الإسلامية المعاصرة، وهذا بالطبع يوقع تلك الحركات ويوقع معها الأمة في إشكاليات لا حصر لفها بل وأحيانا تهما بلا مبرر.

فإذا كانت تلك الحركات تزعم أنها حركة أم، فماذا كان قبلها، هل كانت أمة الإسلام جثة بلا حراك، لا حركة ولا طليعة مؤمنة ولا قيادة، وهل كل جهاد الأمة المعاصر ضد الاستعمار والاستبداد قبل تلك الحركات كان لا إسلاميا... إن معنى هذا أن الحركات والقوى والتيارات اللاإسلامية أصيلة في واقعنا، وأن الحركة الإسلامية الجديدة في هذا الواقع، وبالتالي من حق الناس أن تتساءل لماذا جاءت وكيف وأين ومن وراءها.. إلخ.

والصحيح أن الحركة الإسلامية المعاصرة ما هي إلا حلقة في سلسلة الكفاح الوطني الإسلامي ضد الاستعمار والاستبداد والتخلف والتبعية، وهي إذن الامتداد الطبيعي لجهاد وجهود عبد القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي والثعالبي وعمر المختار وعمر مكرم والأفغاني والنديم ومصطفي كامل ومحمد فريد وعز الدين القسام... وغيرهم من رواد حركة التحرر الوطني ضد الاستعمار.

وهكذا فإن الصحيح أن الحركة الإسلامية حركة تحرر وطني وليست دينا جديدا أو فرقة دينية جديدة، وكفاحها الوطني استنادا إلى الإسلام أمر ليس جديدا فكل الحركات والقوى التي ناهضت الاستعمار في بلادنا والتي تصدت للغزوة الاستعمارية المعاصرة استندت إلى الدين وكانت إسلامية حتى النخاع، وكل من يطالع ويدرس حركات عبد القادر الجزائري والخطابي والثعالبي وعمر المختار وعمر مكر والأفغاني والنديم ومصطفى كامل ومحمد فريد وعز الدين القسام وغيرهم يدرك على الفور أنها إسلامية حتى النخاع وأن إسلاميتها كانت من البداهة

وطبيعة الأشياء لدرجة لا تستدعي هؤلاء للتحدث عنها باعتبارها شيئا مميزا.

وهكذا فالحركة الإسلامية حركة أصيلة في الواقع المعاصر وتمتد بجذورها إلى حركة الكفاح الإسلامي المعاصر ضد الاستعمار وهي حلقة من حلقات الكفاح تتبعها حلقات وهذا بالطبع يحقق لها الأصالة والتجديد معاً، ويجعلها نموا طبيعياً في جسد الأمة وليس زائدة دودية عليها مهما كبرت ويؤكد على ضرورة أن تتصرف هذه الحركة بمنطلق الطليعة وأن تتصدى لقيادة الأمة في كفاحها ضد الاستعمار والصهيونية وأن تعتبر نفسها مجرد خميرة للنهضة، والأمة هي المجال الحيوي لعمل الخميرة مثل اللبن والخميرة، اللبن هو الذي يتحول إلى زبادي، وهكذا فالأمة مثل اللبن والحركة مثل الخميرة.

ولقد وعى الشقاقي أنه وحركته وتياره مجرد حلقة من حلقات الكفاح الوطني، وأنه لا يمثل رؤية دينية جديدة ولا فرقة دينية جديدة ولا قديمة، وليس متميزا عقيدة و انتماء بل هو طليعة لها و خميرة لنهضتها وحركتها وهكذا استطاع أن يحقق أقصى وأوسع انفتاح على الجماهير ولم يكن التنظيم بالنسبة له بديلا عن الجماهير،بل أداة وطليعة لتثوير الجماهير وقيادتها وحشدها وتعبئتها ولذلك كان من الصعب والمستحيل اجتثاث هذه الحركة، إلا باجتثاث الجماهير وهيهات.

كان لابد أن ترتبط هذه الحلقة بسلسة من الكفاح الإسلامي المعاصر ضد مشروع الهيمنة الغربي،وضد الكيان الصهيوني بالذات وعلى اعتبار أن الحركة فلسطينية، وقضيتها المركزية هي القضية الفلسطينية، كان من الطبيعي البحث في التاريخ المعاصر عن هؤلاء الذين فهموا القضية بصورة صحيحةن فهموها على أن إسرائيل جزء من مشروع الهيمنة الغربي وأن المواجهة مع الغرب كل الغرب وليست إسرائيل وحدها، وأن الطريق إلى ذلك لا يكون إلا بتعبئة وحشد الجماهير الكادحة الفقيرة التي ليست لها مصالح مع الاستعمار ولا تخاف منه على مكاسبها وأموالها وتجارتها وأرضها ولا أوضاعها الطبقية،وأن الطريق للمواجهة ليس إلا عبر الكفاح المسلح، ولم يكن هذا منطبقا عليأي من الحركات القائمة على الساحة في ذلك الوقت، كانت هذه الرؤية بالتحديد هي رؤية حركة بدأت في فلسطين ومارست

نضالها منذ نهاية العشرينيات وحتى نهاية الثلاثينيات بوعي مبكر وإدراك فذ لطبيعة المعركة، كانت تلك هي حركة الشيخ المجاهد عز الدين القسام، ذلك الشيخ السوري الذي جاء إلي فلسطين ومارس فيها كالكفاح المسلح ضد اليهود وإنجلترا على حد سواء فأحدث بذلك نقلة نوعية في الوعي والحركة الجماهيرية الإسلامية المعاصرة.

كان الشقاقي قساميا حتى النخاع، ولكنه أضاف وأبدع ولم يقف عند لحظة تاريخية بعينها، بل تقدم إلى الأمام رابطا حركته بجذرها الصحيح، ومتجاوزا بها الأفاق ولعلنا الآن ندرك لماذا اختار فتحي الشقاقي اسما حركيا ليوقع به على أعماله الفكرية في بداية حركته وهو اسم عز الدين الفارس، إنه أخذ هنا اسم عز الدين من عز الدين القسام وأضاف إليه الفارس الذي يقود الفرس ليؤكد على طبيعة الجهاد والقتال والفروسية.

وعز الدين البقسام عند الشقاقي هو « الواجب المقدس في صراع الواجب والإمكان، هو روح داعية مسئولة في وسط بحر من اللامبالاة والتقاعس، وهو رمز للإيمان والوعي والثورة والإصرار على عدم المساومة » المختار الإسلامي العدد ١٣ يوليو ١٩٨٠.

يقول الشقاقي: « كان القسام عالما مؤمنا مسلما لا يفتر عن ترديد آيات الجهاد والآيات التي تدعو إلى النضال والتضحية وكذلك كان الشقاقي.

ويقول الشقاقي أيضا : كان القساميون يلجؤون في النهار إلى الكهوف ويصلون ويقرؤون القرآن، وفي الليل يخرجون إلى القتال، وأن القسام كان يدعو إلى الجهاد على أساس ديني وكان له شعار واحد تنطوي تحته كل مفاهيم الثورة « نصر أو استشهاد»، وكان يرفع كتاب الله في يد والبندقية في اليد الأخري، وأن إيمان القسام قد وصل إلى الذروة في تلك اللحظة التراجيدية الخالدة، التي واجه فيها قوة من ٤٠٠ إلي ٦٠٠ رجل بريطاني هو وعشرة من إخوته كانت المعركة قد بدأت في الصباح واستمرت حتى الظهر وأثناء احتدامها حاول الغزاة إغراءه بالمال والوظائف حتى أنهم عرضوا عليه منصب نائب المفتي ولكن البطل المسلم أجابهم « لن نستسلم إن

هذا جهاد في سبيل الله والوطن » ثم التفت إلى رفاقه قائلا «موتوا شهداء».

ولعل تحليل الشقاقي لحركة عز الدين القسام ودراستها بهذه الطريقة الدقيقة تؤكد على وعي الشقاقي من ناحية، وإضافته الثورية إلى التراث الثوري العالمي من ناحية أخري، وتحدد ملامح وطبيعة حركته التي أنشأها مع رفاقه فيما بعد «حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين».

يقول الشقاقي: « لم يكن القسام طوال مراحل نضاله مجرد مقاتل صلب وعنيد فحسب بل كان أيضا مفكرا داعيا يتمتع برؤية ناضجة وواضحة على المستوى الاجتماعي والمستوى السياسي حيث خاض نضالا مستمرا قبل أن يخرج للقتال، أدرك القسام أن الأمة الجاهلة لن تستطيع أن تقاوم أخطبوطا يسخر العلم لخدمة كل أغراضه، فكان القسام رجلا عالما تولى التدريس في المدرسة الإسلامية بحيفا وفي المساجد خاصة مسجد الاستقلال وكان ينشر أفكاره بين العمال والفلاحين والباعة الجائلين وكانت تجربته بتأسيس مدرسة ليلية لتعليم الأميين من الشعب تجربة رائدة على المستوى الاجتماعي، وأن القسام اهتم بالمرأة وحاول تطوير وعي النساء اللاتي كن على علاقة قوية بالتنظيم السياسي من أجل أن يصبحن عضوات عاملات ومنذ أن استقر القسام في حيفا دخل معترك النشاط الاجتماعي فانتسب إلى جمعية الشبان المسلمين ثم انتخب رئيسا لها بعد ذلك، كما استغل فرصة عمله كمأذون شرعي فكان يحضر الأفراح للتعرف على الجماهير وفهم نفسياتهم مما سهل عليه الاتصال بسائر الطبقات.

وهكذا فإن الشقاقي يكتشف من خلال حركة القسام تلك العلاقة الجدلية بين العمل السياسي والعمل الاجتماعي، وكذا يكشف إلى من يتوجه بخطابه الجهادي، إلى العمال والفلاحين والباعة الجائلين، وإلى أن من الضروري فهم نفسية الناس من خلال الاحتكاك بهم وفهم الخطاب المناسب لهم.

ويؤكد فتحي الشقاقي دائما على حقيقة بديهية ـ وهي « أن القسام أدرك أن هذه الأمة التي حاول أعداؤها عزلها عن الإسلام لن تكون مستعدة للجهاد بدون إعداد

خاص وأن هذه المهمة لن تتصدى لها إلا طليعة ثورية مسلمة وأن تنظيما صلبا وفعالا ضمن نظرية ثورية واضحة المعالم من أهم عوامل الانتصار على عدو متقدم كماً وكيفاً!.

ويطرح الشقاقي الكثير من رؤيته من خلال فهمه لآليات عمل القسام، أو قل يعطي تلك الآليات إطارها النظري والعرفي ويصيغ منها نظرية ثورية تصلح لكل حركة ثورية من قبل ومن بعد، فيري الشقاقي أن من الصعب طرح مفهوم الثورة والوعي إلا من خلال علاقة جدلية بين الاثنين، وأن من الصعب دراسة الوعي والثورة منفصلين».

والحقيقة أن الوعي والثورة هما عمل واحد، فالثورة تؤدي إلى الوعي والوعي يؤدي إلى الثورة، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩].

ويرصد الشقاقي الكثير من الخبرات الثورية والحركية من خلال دراسة تجربة القسام فيقول « استطاع القسام فهم وتحليل المجتمع والظروف السياسية بشكل متقدم واستخدام هذا التحليل في اختيار لحظة التفجير المناسبة فلم يكن متعجلا حين عرض عليه بعض إخوانه إعلان الثورة بعد انتفاضة حائط البراق لعدم كفاءة التنظيم وعدم نضج الظروف كما أنه رفض رغبة بعضهم في جلب المال بالعنف مؤمنا ومعلنا أن الجماهير ستنحاز للثورة فور قيامها.

والشقاقي هنا يضع يدنا على الكثير من الحقائق الثورية، أولها ضرورة حساب اللحظة المناسبة للتفجير الثوري ذاتيا وموضوعيا، فالاستعجال بها هو بمثابة إجهاض لجنين الثورة، والتأخير فيها بمثابة ترك الثمار تفسد على الشجرة فلا يصبح لها قيمة بعد ذلك، وثانيها ضرورة التمسك بالأخلاق الثورية ورفض تبرير الوسائل اللاأخلاقية بدعوى الحاجات الثورية مثلا، وثالثها ثقة الثائر المطلقة فى جماهير أمته.

ويضيف الشقاقي مكتشفا ومؤكدا للعديد من الحقائق الثورية والسياسية والحضارية من خلال القسام « رأي القسام أن بريطانيا هي العدو الرئيسي وأن الصهيونية تابعة لها، وأن النضال السياسي السلبي لم يعد يجدي نفعا ولابد من

اعتماد الكفاح المسلح أسلوبا للنضال».

والشقاقي هنا يؤكد حقيقة كون الصراع مع الغرب كل الغرب وليس إسرائيل وحدها، وأن إسرائيل هي جزء من مشروع الهيمنة الغربي، وأن بريطانيا ممثلة مشروع الهيمنة الغربي في هذا الزمان والمكان هي العدو الرئيسي، وأنه بسبب طبيعة الصراع، الذي هو صراع حضاري، وصراع وجود وصراع يستهدف قلب الأمة الإسلامية بل ورأسها، فإنه لا بديل عن الكفاح المسلح، أسلوبا للنضال.

يضيف الشقاقي « كما كان القسام واضحا وصائبا في تحديد العدو فقد كان عليه أن يحدد الحليف الحقيقي، ورغم إيمانه أن العرب والمسلمين في الأقطار المجاورة هم بعد استراتيجي للشعب الفلسطيني إلا أن على الشعب الفلسطيني أن يعتمد على نفسه أولا، رأى القسام أن العمال والفلاحين هم أصدق حليف للثورة وللاستمرار بها، ولهذا كانت القيادة العليا لتنظيم القسام تتكون من عمال وفلاحين علماء وبائعي جاز متجولين أمثال «العبد قاسم، ومحمود عرورة » وأن القسام كرائد طليعي ثوري مسلم أدرك أنه في مرحلة كهذه، مرحلة البحث عن الاستقلال والحرية فلابد من الدم والثورة التي لن يقدمها إلا الكادحين في حين رفعت البورجوازية شعار الحكمة والتعقل.

وهكذا يكتشف الشقاقي أهم الدروس الثورية التي بسبب غيابها وقفت الكثير من الحركات الإسلامية في طريق مسدود ومأزق استراتيجي، ألا وهو عدم المراهنة على البورجوازية والوجهاء، لأنهم أولا أصحاب مصالح ويقتسمون شيئا من الفتات مع مشروع النهب الاستعماري، ومهما كانت درجة إخلاصهم فإنهم في النهاية سيخافون بشكل أو بآخر على مصالحهم العائلية أو الاقتصادية، وأنهم حتى ولو ارتفعوا فوق تلك المصالح فإن نفسهم الثوري قصير وقدرتهم على الاستمرار محدودة، وأنهم دائما يهربون من المواجهة الثورية بدعوى الحكمة والتعقل، وأنه بالتالي فلا حليف للثورة، ولا قادر على الاستمرار بها بنفس طويل لا ينفد إلا الجماهير الكادحة من العمال والفلاحين والعلماء والباعة المتجولين، الذين هم يعكسون وجدانا إسلاميا عميقا أولا، ثم ليست لهم مصالح تتقاطع أو تتعارض أو

تتفق مع المشروع الغربي، لأنهم بالتحديد أول ضحاياه، وهكذا فإن هناك شروطا محددة لأي عملية ثورية هي فهم طبيعة الصراع... وهي أن إسرائيل جزء من مشروع الهيمنة الغربي وبالتالي فالمواجهة شاملة لكل المشروع وقواه من استعمار وصهيونية وعلمانية.

وإدراك أن صراعا كهذا لا يحل عبر المفاوضات ولا الحلول الوسط ولا دعوى التعقل والحكمة، لأنه ليست هناك مساحة من الاتفاق والاختلاف تتسع وتضيق يمكن التفاوض حولها، بل يحل بالكفاح المسلح، وأن جنود الثورة وحلفاءها ليسوا البورجوازية والوجهاء بل الكادحين والفقراء.

ولعل هذه الشروط تفسر لماذا أسقطت كل القوى اللاإسلامية أو اللاجماهيرية في مستنقع التفاوض والحلول الوسط واحدة بعد أخرى ويفسر التردد الموجود في حركة حماس بسبب مراهنتها على الوجهاء والبورجوازية أحياناً، ومراهنتها على التنظيم دائماً، ويفسر لماذا ظلت حركة الجهاد الإسلامي الفلسطيني بيضاء الثوب من كل تردد وتراجع ومساومة.

وشروط الاستمرار وطول النفس ثلاثة هي الإسلامية، الكفاح المسلح، الجماهيرية.

(٤)

حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين تجسيد للنظرية الثورية للشقاقي

حركة الأيديولوجيا والإرادة والدم

انطلق الدكتور فتحي الشقاقي في تأسيسه مع رفاقه حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين وكذا جهاده المستمر والدائب على هذه الساحة من مجموعة من الحقائق ومستقرئات العقيدة والتاريخ والاستراتيجية، فإسرائيل ليست إلا جزءا من مشروع الهيمنة الغربي على العالم عموما والعالم الإسلامي والعربي خصوصا، وأنه لم تكن مصادفة أن يقدم الغرب وعد بلفور في الوقت الذي كان فيه يدمر بنيان الدولة العثمانية ويجتاح المنطقة عسكرياً ويخضعها إلى شبكة علاقات قائمة على الارتهان والتبعية وأن الغرب قد عمد إلى شن حربه الشاملة ضد الوطن العربي والإسلامي وتكريس القابلية للاستعمار في نفوسنا وتدمير منابع القدرة الداخلية وذلك بتحطيم المكونات العقدية والفكرية والحضارية للمجتمع الإسلامي وتغيير أنماط المعيشة والإنتاج فيه بما يخدم مصالحه وتحقيق التبعية له، وعمد الغرب إلى خلق مؤسسات موازية ومعادية لنا يديرها تلامذة له مأخوذين بثقافته، ولم تكن سوى محاكاة مشوهة وناقصة لمؤسسات الغرب في سعي منه لتدمير العقل المسلم وحشوه بمفاهيم الغرب ليقطع كل طريق على عملية التفكير في إعادة بناء المجتمع الإسلامي المقاوم، فمجرد تدمير المؤسسات الإسلامية مع بقاء العقل الإسلامي في يقظة كفيل بمحاولة البدء من جديد وكفيل بنجاح المؤسسات الإسلامية من جديد وإعادة بنائها من جديد، وأن إسرائيل وجدت لتمارس وظيفة مستمرة دائبة هي ضرب النفسية المسلمة وتحويل ميدان الحركة الحقيقية إلى ميادين وهمية تستنفد الجهد والطاقة، وقيام دولة إسرائيل أهم وأعنف وأخطر أشكال الحرب الغربية الشاملة ضدنا، وبقيامها واستمرارها في القلب من الوطن الإسلامي تكون الهجمة الغربية قد نفذت أهم وأخطر مهماتها، فنحن هنا لا نواجه مجرد تحد عسكري أو مجرد

تحد فكري وإنما نواجه تجمعاً عدوانياً استيطانياً في مكان هام وحساس من الوطن الإسلامي يعطي للصراع كل أبعاده التاريخية والحضارية والعقائدية والفكرية إضافة إلى الأبعاد العسكرية والسياسية والاقتصادية، ومع إسرائيل لم تعد ثقافة الأمة فقط هي المهددة بل وجودها برمته.

والدور الصهيوني في المنطقة ليس قاصرا على فلسطين أو حتى دول المواجهة فقط، بل إن إسرائيل تعتبر حدودها الأمنية تشمل باكستان وإيران حتى شمال أفريقيا ومن تركيا حتى جنوب السودان وتعتبر إسرائيل كل ما بين ذلك ـ على الأقل ـ قابلا للتدخل الصهيوني اقتصاديا وعسكريا وأمنيا.

وهكذا فالمعركة مع إسرائيل معركة الأمة كلها بطاقاتها وبفكرتها الشاملة عن نفسها وعن الآخر، إذ عندما تعتقد الأمة بقدراتها واستعدادها النفسيين على مواجهة الآخر والانفكاك من أسر تبعيته والارتهان له، تبدأ في تحقيق استقلالها السياسي وتنهض في الوقت نفسه لمعركة تحرير فلسطين،انطلاقا من أن فلسطين هي القضية المركزية للأمة الإسلامية حيث استطاع الاستعمار الغربي الحديث الذي أطلقته الحملة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر، استطاع بعد حوالي قرنين من الزمن أن ينشئ الكيان الصهيوني الذي أصبح مركز الهجمة الغربية ضد الوطن الإسلامي، ومركز المشروع الاستعماري، ومن هنا فإن فلسطين تأتي في قلب ومركز المشروع المضاد الإسلامي، فالمعركة ليست فقط بين الشعب الفلسطيني والكيان الصهيوني بل معركة كل الأمة ضد الغرب المستعمر الذي يمد الكيان الصهيوني بكل أسباب الحياة والرعاية والحماية، وبدون انتظام طاقة الأمة في طريق ونهج موحد فسيبقي الخلل في توازن القوي قائما ومستمراً لصالح العدو، ومن هنا تأتي أهمية استقلال القرار السياسي والقضاء على جذور ومنبع التبعية بكافة أشكالها، ونظم مفردات قوة الأمة التي تكمن في هذا العدد البشري المتعاظم وهذا الموضع الجغرافي المتميز والإمكانات المادية الهائلة، إضافة إلى التاريخ والموروث الحضاري الإسلامي المستند إلي أيديولوجية حية باعثة، قادرة على بعث الأمة وتفجير إمكانياتها ونظمها في كينونة فاعلة ومؤثرة.

وهكذا فإن مسألة تحرير فلسطين ـ عند الشقاقي ـ هي مسألة مشروع ينتظم إمكانات الأمة ويرد على حرب الغرب الشاملة بحروب شاملة ثقافية وفكرية واقتصادية وأمنية وعسكرية، ويبقى دور المجاهدين في فلسطين وهو إحياء فريضة الجهاد ضد العدو ومشاغلته واستنزاف طاقاته وكشف وجهه البشع وتدمير ما يستطيعون من قدراته وإدامة الصراع حيا حتى وحدة الأمة وتحقيق النصر والتصدي لمؤامرات تصفية القضية التي يوجهها الغرب.

إذن فالمعركة حضارية وشاملة، وإسرائيل جزء من مشروع الهيمنة الغربي، والمعركة ضدها هي معركة كل الأمة، وليس تنظيما أو جماعة أو حكومة وبالتالي فإن هناك عدة شروط لاستمرار وديمومة ونجاح أي عمل جهادي، وهذه الشروط هي الإسلامية والكفاح المسلح والجماهيرية، ولا شك أن حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين امتلكت هذه الشروط وبقدر استمرار تمسكها بها بقدر استمرارها ونجاحها التكتيكي والاستراتيجي، وأهداف هذه الحركة كما حددها الشقاقي مرحليا واستراتيجيا، مرحليا هي إحياء فريضة الجهاد ضد العدو، ومشاغلته واستنزاف طاقاته وكشف وجهه البشع، وتدمير ما أمكن من قدراته، والتصدي لمؤامرة تصفية القضية بمشاريع التسوية التي يوجهها الغرب، واستراتيجيا تحرير فلسطين، كل فلسطين والانتصار على مشروع الهيمنة الغربي بكامله، وتحقيق الانعتاق لكل مستضعفي العالم من ذلك النهب والقهر والهيمنة الغربية.

ولكن لماذا حركة الجهاد الإسلامي، ألم تكن الأطر القائمة من أحزاب وجماعات وحركات إسلامية أو وطنية صالحة لتطويرها والعمل من خلالها، بالطبع لا، لأن تلك الأطر إما فقدت إسلاميتها، وإما مارست إسلاماً شكليا، أو لم تفهم طبيعة الصراع ولم تعط قضية فلسطين حقها وحجمها الصحيح، وإما كانت حركات لا تستند إلى الجماهيرية بقدر ما تستند إلى التنظيم، وقدرة التنظيم إلى نفاد، والمحافظة عليه تجعل قيادات تلك الحركة تمارس نوعا من الوسطية والمساومة أو السكوت، وفي قضية مركزية مثل قضية فلسطين لابد من المبدئية الكاملة ولو على حساب التنظيم ولابد من المواجهة المستمرة وبلا حدود لأن الأمر يخص أمة

وحضارة وتاريخ وجغرافيا ووجود.

وهكذا كان لابد للشقاقي ورفاقه ـ مع هذا الظرف ـ أن يضربوا بجذورهم نحو القسام وأن يقيموا كيانهم المتميز كشاهد على المرحلة وأن يتجاوزوا الأطر المنهارة والمتراجعة، وطنية أو إسلامية، وهكذا لم يكن هناك بديل من إنشاء حركة الجهاد الإسلامي.

ولنترك الدكتور الشقاقي بنفسه يجيب على عدد من الأسئلة حول الحركة، عن الإرهاصات والمخاض، التاريخ والأيديولوجيا، التيار والتنظيم، عن الحلم المشروع والمستقبل.

فالحركة ـ كما يقول الشقاقي ـ «لم تخرج من فتح رغم أن بعض عناصرها عاشوا التجربة الوطنية، بكامل أبعادها، كما لم تخرج من تنظيم الإخوان المسلمين ـ رغم أن بعض كوادر الحركة عاش التجربة الإسلامية مع الإخوان ـ ويضيف الشقاقي ولكن التجربة الإسلامية المعاصرة والمناخ الديني كانت من أهم العوامل المؤثرة أو لنقل كانت بمثابة «المحضن» للحركة، وأنه رغم عمق التجربة الإسلامية وتأثيرها الهام، ومع إطلالتنا على التجربة الوطنية إلا أننا لم نكن امتداداً أو انشقاقا تنظيميا لأحد أو عن أحد ولم يجتمع عشرة أو عشرون من مثقفي الطبقة الوسطى ليشكلوا حزبا فوقيا، لم نكن جبهة شعبية تخرج من حركة القوميين العرب ولا فتح تخرج من رحم الإخوان المسلمين وبقايا الأحزاب الوطنية، كان جيل البعث في الحركة الإسلامية المعاصرة الذي جاء دوره بعد غياب شمس الخلافة الإسلامية (١٩٢٤) وتبلور منذ عام ١٩٢٨ يؤدي رسالة تيار وتنظيم ولكنه بعد استشهاد البنا يتحول إلى جيل المحنة وبعد نكبة صيف السابع والستين وسقوط بيت المقدس ذلك السقوط المدوي والزلزال في تاريخ الأمة وواقعها ووجدانها يتشكل شيئاً فشيئاً، الجيل الثالث جيل الوعي والثورة ليواجه التحدي بعد سقوط البدائل، من عذابات هذا الجيل جئنا، ومن بين أنقاض الزلزال، كانت ليالي الحلم القاسية كان السؤال الفلسطيني محور اللغز الذي كان علينا أن نفك طلاسمه بكينا وصرخنا.. تصدعت رؤوسنا.. كما نبني حرفا فوق الحرف حتى تكتمل اللقطة لنبكي من جديد فرحا في

لحظة الكشف وتواصل والتقاء التاريخ بالمطلق فوق بيت المقدس، لم نأت من السياسة إلى الإسلام ولم نأت من فلسطين إلى القرآن، ولكن الذي حدث أننا وفي ذروة المعاناة وفي أشد الفكر والجهد والعذاب، في لحظات وجد ودعاء كنا فيها الأقرب إلى الله.. شاهدنا فلسطين، شاهدناها في قلب القرآن.. شاهدنا رحلة الإسراء ذات الساعات القليلة، صورة إلهية لتاريخنا الممتد ألف وأربعمائة عام من مكة والمدينة إلى بيت المقدس، من محمد ﷺ والقرآن ينزل إلى محمد ﷺ والقرآن قد اكتمل منهجا قويما وفاعلا، من بني قريظة إلى الليكود، من حراء إلى كامب ديفيد، من وعد الأولى إلى وعد الآخرة، من جاسوا خلال الديار إلى ليسوءوا وجوهكم، من القرآن إلى القرآن، تعانقنا، صرخنا من الفرح، بدا كل شيء بعد ذلك مجرد وقت، فقد اكتشفنا كلمة السر، لم نكن وسطا حسابيا بين الإسلام والوطنية لم نكن الوسط الحسابي ولكنه الجدل الممتد من المطلق إلى التاريخ من القرآن إلى فلسطين، الجدل الذي لا يعرف فواصل العجزة، لم تكن الرحلة سهلة، الرحلة كانت مسكونة بالألغام وبالأشواك ولكن زادنا من الإيمان والثقة جعلنا دوما ضد اليأس ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

وضد الخوف

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾

وضد التراجع

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

ويضيف الشقاقي «نحن حركة لا يمكن أن ترتهن لغير الله ولغير المشروع الإسلامي الواعد والمستقل عن كافة الأشكال الغامضة أو البنى المنهارة، ولأننا أدركنا بأن الأمر مجرد وقت وأننا نسابق الزمن فقد حفرنا الصخر بأظافرنا وجوعنا وفقرنا، حتى إن كثيرين سيعجبون كيف تحول الحلم إلى واقع سياسي مؤثر يتنامى

كل يوم في غياب الإمكان المادي، رغم الفتنة والإغراءات، ولكنها بركة الأيديولوجيا والإرادة والدم.

ويقدم الشقاقي المزيد من التحديد والضوء على حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين قائلا: « في زمن الغياب كنا نحلم بعودة الإسلام إلى دوره التاريخي فوق أقدس الساحات، في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس كان خيارنا أن نكون رأس حربة ضد المشروع الاستعماري الصليبي الصهيوني، وأن ننتشر فوق أرض الإسراء والمعراج كقدر إلهي يحمل منهجا واضحا محددا لفهم الإسلام والعالم والواقع وأن نعيد صياغة الأشياء ضمن نظرية ثورية واضحة المعالم».

ويؤكد الشقاقي على البعد الجماهيري في الحركة من خلال تجربتها في هذا الصدد ومدى ثقته في الجماهير قائلا: «لقد استطاعت الحركة مبكرا أن تلتحم بالجماهير وأن تكتشف عظمة هذه الجماهير وبالمقابل كانت الجماهير تكتشف صدق الحركة ومصداقيتها واستعدادها للتفاني والتضحية، وقد تميزت تلك الفترة من عمر الحركة بالنشاط الجماهيري والقبول الإعلامي والسياسي المكثف ووصلت بذلك إلى المساجد والبيوت والشوارع والمدارس والمعاهد والجامعات والجمعيات والمؤسسات والنقابات واستطاعت تشكيل تيار إسلامي جماهيري جهادي، وهي تحاول رسم ملامح المرحلة القادمة والخروج من حالة الغياب الإسلامي المذهل على الساحة الفلسطينية عبر عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات إلى التماس في صراع مباشر مع الظاهرة الإسرائيلية عبر شعارها الاستراتيجي « القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للحركة الإسلامية المعاصرة »، هذا الشعار الذي بدا غريبا على أسماع البعض ولكنه تحول في شهور قليلة إلى تيار جهادي يتشكل في الشارع الفلسطيني المتعطش للإسلام المجاهد».

والشقاقي هنا يكشف بوعي عن عدد من الحقائق، وهي أن الغياب الإسلامي عن الساحة الفلسطينية طوال ثلاثة عقود هي الخمسينيات والستينيات والسبعينيات لم يكن بسبب رفض الجماهير لذلك بل إن الجماهير في الشارع الفلسطيني كانت متعطشة للإسلام المجاهد وهذا بديهي بالطبع، إذن كان العيب في التيار الإسلامي

بالطبع وعندما حمل هذا التيار الشعلة واستخدم شعارا صحيحا والتحم بالجماهير كانت النتيجة مذهلة، ومن الطبيعي أن تكون مذهلة فالجماهير بطبيعتها وجدانها إسلامي وحسها إسلامي ووعيها إسلامي حتى النخاع، وهي ما غابت ولا تخلفت لحظة عن حركة إسلامية صادقة ومجاهدة وتثق في الجماهير.

ويرصد الدكتور الشقاقي العديد من العمليات الجهادية والنضال السياسي اليومي لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين طوال الثمانينيات وحتى اندلاع الانتفاضة الفلسطينية في ٦/ ١٢/ ١٩٨٧ وأن تلك الانتفاضة كانت تتويجا لجهود ونضالات طويلة.. وإن كان الدكتور الشقاقي ـ بسبب تواضعه وأدبه ـ لم يقل إن نضالات أبناء حركة الجهاد الإسلامي في طول الوطن المحتل وعرضه كانت السبب الحقيقي لاندلاع الانتفاضة أولا، ثم لاستمرارها ثانيا، لأن الحركة استطاعت أن تعطي مضموناً واعيا وجهاديا لحركة الشعب الفلسطيني، وأن الحركة كانت تمتلك الالتحام الجماهيري والأدوات السياسية القادرة على تفجير الانتفاضة وتصعيدها إلا أن الحقيقة أن الانتفاضة الفلسطينية في أكتوبر ١٩٨٧ كانت ابنة شرعية لنضال حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين وأن الآخرين كل الآخرين قد لحقوا بمؤخرة القطار عندما أقلع بالفعل وهذا بالطبع يرجع إلى أن أي حركة أخرى ـ ليست جماهيرية بالضرورة ولا تستند إلى الجماهير بل إلى تنظيم مثلاً- يمكن أن تنظم مهرجانا حافلا ناجحا أو مظاهرة واحدة ،أو اثنتين، منظمة وبراقة ولامعة وكبيرة ولكنها لا تقدر على الانتفاض الشعبي المستمر، لأن هذا من شأن القوى التي تثق في الجماهير وتلتحم بها وتعتبرها مادتها الأساسية في الصراع، وهذا بالتحديد لا ينطبق إلا على حركة الجهاد الإسلامي وبديهي أن الانتفاضة ـ كما يقول الشقاقي « لم تكن إلا مرحلة في نضال طويل وشاق وشرس وأن الجهاد المسلح هو الطريق الأكيد لتفكيك هذا المشروع الصهيوني الاستعماري».

وفي الحقيقة فإن حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين مارست قبل الانتفاضة وأثناء الانتفاضة وبعد الانتفاضة هذا الجهاد المسلح ونفذت كوادرها عشرات العمليات الاستشهادية ضد العدو الصهيوني، واستطاعت أن تنزل به خسائر فادحة

أفقدته صوابه.

والشقاقي وبسبب الوعي والإخلاص والتجرد، ورغم أنه مؤسس حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين فإنه لا يجعل منها صنما يعبد من دون الله، ولا يجعلها حركة أم أو أولى أو أخيرة، بل حلقة من حلقات الكفاح الإسلامي سبقتها حلقات، تتبعها حلقات، والاسم والإطار التنظيمي ليس بالطبع شيئا خالدا مقدسا، ولكن العقيدة والهدف هما الثابتان وغيرهما بالضرورة متغير... ويرى الشقاقي أن حركة الجهاد الإسلامي قد شرفها الله بأن جعلها نواة للعمل الإسلامي الجهادي في أرض الرباط، ولكن هذا الشرف العظيم الذي جاء في ظرفه التاريخ ومرحلته التاريخية لا يعني احتكار حركة الجهاد الإسلامي للجهاد في فلسطين ولا تفردها وحدها على هذا الطريق المقدس، فالحركة في نفس الوقت الذي شكلت فيه نواة للعمل الإسلامي الجهادي كانت امتدادا أو جزءا من حركة إسلامية أوسع وأكبر كان لها دورها الريادي في اخضرار الساحة الفلسطينية بالإسلام وهكذا فحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين لا تمثل كل الساحة الإسلامية وإن كانت رافدا منها وإليها، وكونها نواة تاريخية، في هذا الظرف والمرحلة التاريخية، للعمل الجهادي في فلسطين يجعلها في طليعة المجاهدين الذين يتكاثرون يوما بعد يوم، ولكنه لا يعطيها بالضرورة أي حق للتمايز، عن الآخرين فهي جزء منهم يتعاظم ويكبر بهم،و بقدر الإيمان والتقوى والالتزام والقدرة والأهلية والاستعداد والإرادة يأخذ كلٌ دور في ساحة الجهاد على أرض الرباط، وكونها نواة تاريخية مسألة تاريخ وظرف تاريخي لا أكثر، وهي مستعدة لأن تسلم قيادتها لكل مجاهد قادر ومخلص بدون تمايز الزمان والمكان أو الأسماء، تسعى لوحدة كل المجاهدين على درب تحرير فلسطين تحت راية الإسلام العظيم، ومسألة الوحدة بالنسبة لها ليست مسألة تحالفات صغيرة أمام ظرف كبير، إنما هو التزام شرعي، آثم من يتنازل عنه، وقضية استراتيجية جاهل من لا يستبعدها أو يستبعد أهميتها، وبقدر ما نقترب من الوحدة بقدر ما نقترب من الله و من الانتصار.

(٥)

المرأة في المشروع الفكري والحركي لفتحي الشقاقي

استطاع الدكتور فتحي الشقاقي فكرا وممارسة أن يحل الإشكالية المعروفة لدى الحركة الإسلامية المعاصرة حول قضية المرأة من خلال طرح أصولي معاصر ومجاهد في نفس الوقت، فهو يرفض استلاب المرأة لقيم الغرب وثقافته ويرفض حبسها في قمقم التخلف في نفس الوقت، بل يدفعها إلى الأمام لتأخذ دورها كإنسانة مسلمة، وكمناضلة طليعية في الصف الإسلامي وكمسئولة عن حركة الإحياء الإسلامي والجهاد في سبيل الله من أجل قضايا الأمة وتحدياتها.

وفي هذا الإطار استطاع فتحي الشقاقي أن يدخل مفاهيم تجديدية وجهادية في أشد الموضوعات تقليدية تأكيدا للثوابت وانطلاقا للآفاق.

فالمرأة عند فتحي الشقاقي «تقف شاهدة على عصرها، في كل أزمان التحول العظيمة التي تحياها الأمم، وهي تراقب وتشارك وتسجل، وهي ترفع يدها في وجه الظلم والخوف والقهر، تنتمي إلى الحقيقة والأصالة والثورة في وقت واحد، طوبي لمن تأتي غدا بالحجاب ـ المختار الإسلامي ـ العدد الأول ـ ص٤٦ »وتراثنا المشتعل خصوبة وحياة لم يتوقف يوما عن صنع النماذج، ركبا تلو الآخر، وامرأة تلو الأخرى على خطى محمد صلى الله عليه وسلم وتحت ظل راية القرآن، ورغم شراسة حملات الغزو الفكري التي يقودها الاستعمار خلف مكبرات الإذاعة وشاشات السينما والتلفزة، رغم كل هذا فإن جيلا يتكون الآن وتحت ظل التحديات القائمة أكثر صلابة ووعيا بحقائق الأمور، وما ظاهرة الحجاب الذي بدأ يكسو أرضنا الطيبة إلا رمز لهوية هذا الجيل الذي نفض عن نفسه غبار التفتت والانفصام والازدواجية، واختار العودة إلى الله، والحجاب ليس شكلا تعبديا فقط كما يتوهم البعض ولكنه مسألة هوية واكتشاف للذات بعد طول سقوط وضياع في مجاهل

التغريب اللعين، ولقد فرض علينا الاستعمار ملابسه وجاء لنا ببيوت أزيائه لكي تستبعد أشياؤه هذه نساءنا وفتياتنا، كي نلهو بعيدا عن قضايانا الحيوية ولهذا كان الحجاب ويجب أن يكون قضية وطنية في غاية الأهمية، إنه رفض لروح الاستعمار ومخططاته، إنه رمز لوعينا بطبيعة الصراع رمز لإصرارنا علي مواجهة التحدي ورمز لرفضنا نهب ثروات بلادنا والعبث بمقدساتنا ـ نعم هكذا الحجاب ـ وهكذا يجب أن يكون انحيازا واع ومقدس إلى معسكر العدالة والحرية والعدل، انحيازا إلى معسكر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه الكرام ونبذ لمعسكر الطاغوت وأوليائه» طوبى لمن تأتي غدا بالحجاب ـ المختار الإسلامي ـ العدد (١) يوليو ١٩٧٩ ص٦٤.

وهكذا فالحجاب عودة إلى الله ثم إنه أيضا مسألة هوية واكتشاف للذات ورفض للتغريب ونضال ضد الاستعمار ورمز للوعي بطبيعة الصراع.

والمرأة شاهدة على العصر، تناضل وترفض الظلم والقهر والخوف وتنتمي إلى الأصالة والحقيقة والثورة.

ويرصد الدكتور فتحي الشقاقي النضال السياسي للمرأة المسلمة المعاصرة من خلال تجربتين هما ثورة ١٩١٩ في مصر والثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩ قائلا «هكذا الحجاب ليس شكلاً نتعبده، ولكنه هوية وقضية ووظيفة فعندما اشتعلت ثورة ١٩١٩ نزلت السيدة المصرية إلى شوارع مصر متسربلة بالحجاب لباسا للعفة والثورة لتهتف للاستقلال وتبصق على وجه المحتل القبيح، وعندما اشتعلت ثورة الإسلام في إيران وقف العالم مشدوها وهو يرى السيدة الإيرانية تهبط من جبال قم وشيراز ومشهد وتبريز إلى شوارع طهران رافعة يدها في وجه العسكر والكلاب واحتكارات الدول الكبرى ووقف العالم مشدوها وهو يرقب النور يأتي من وجه السيدة الإيرانية المتسربلة بالحجاب ليمتد ويمتد ويبدد ظلم هذا الكون المملوء بالليل». نفس المقال السابق.

وفي أطروحة فكرية شديدة الأهمية تحت عنوان «المرأة المسلمة تيار جديد.. مهام جديدة» المختار الإسلامي، العدد (١٠) ١٤ أبريل ١٩٨٠ يحذر فتحي

الشقاقي المرأة المسلمة من المؤامرة الاستعمارية عليها بهدف تبديد إسلامها وإبعادها عن قيمها الأصيلة واستلابها لصالح منظومته الفكرية والحضارية. ويرى فتحي الشقاقي أن تدمير إسلام المرأة هو تدمير لمستقبل الإسلام، ويرى فتحي الشقاقي أن قاسم أمين كان آخر درجة في سلم الانحدار في ذلك الوقت ذلك السلم الذي بدأه الطهطاوي منبهراً بالغرب وحضارته وتلاه محمد عبده متراجعا أمام ما سمي بالهجمة العلمية الغربية محاولاً التوفيق بين الإسلام وقيم الغرب الحديثة ثم تلاه جيل بأكمله من المهزومين أمام الهجمة الغربية على الوطن الإسلامي ومن تلامذة التبشير والاستشراق ومن أبناء الأقليات غير الإسلامية، جيل عديد متعدد الأسماء طويل يمتد إلى عصرنا هذا وكان من أبرز رجاله لطفي السيد وطه حسين وشلبي شميل وفرح أنطون وبطرس البستاني وآخرون»..

كان بروز قضية المرأة إذن أحد أهم دلالات سقوط النظام السياسي للإسلام بسقوط الخلافة الإسلامية، ثم ضغط الهجمة العلمانية الغربية ومؤسساتها في الوطن الإسلامي وتلامذتها الأوفياء.

ويؤكد الدكتور فتحي الشقاقي على أن الأسلام يهتم بتعليم المرأة، ومن يقول غير ذلك جاهل أو متآمر، وأن الهدف الغربي في قضية المرأة لم يكن تحريرها ولا تعليمها بل كان الهدف شيء آخر تماماً ولقد كان الهدف هو أن تفقد المرأة أنوثتها ثم إنسانيتها وكرامتها ودينها وينتهي الأمر بتدمير البيت المسلم والنشء المسلم والمجتمع الإسلامي بأكمله.

وإزاء ذلك كله كان لابد للمرأة المسلمة أن تقف وتواجه هذا الإرهاب الفكري وتلك الهجمة الاستعمارية العنيفة، أن تقف المرأة المسلمة كواقع حي واع في وجه الهجمة الغربية وظواهرها الاجتماعية، لا موقف المتراجع المهزوم المدافع وإنما موقف المستوعب للتاريخ، الواعي لقضية الإسلام المتقدم لإزاحة تلال الخراب، لقد انتهت تلك القضية الزائفة التي روجوا لها أكثر من نصف قرن، انتهى ما يسمى بقضية تحرير المرأة بالأسلوب التغريبي أو هي علي وشك الانتهاء فالواقع الإسلامي سيفرض قيما جديدة وسائل جديدة وأهداف جديدة.

والمرأة المسلمة عند الشقاقي هي امرأة منفصلة عن قيم الطبقة وعن أهداف الطبقة وعن سلوك الطبقة، فقيمها هي قيم الإسلام وأخلاقها هي أخلاق الإسلام وأهدافها هي أهداف الحركة الإسلامية، وأن الانتماء الحقيقي إلى الإسلام يبدأ أولا بالانفصال عن القيود التي تقام حولنا ضمن الطبقة التي ننتمي إليها.

والمرأة المسلمة عند الشقاقي هي التي تتحرر من قيم الجاهلية ومفاهيم الغرب والاقتراب أكثر من أهداف الحركة الإسلامية المعاصرة وممارساتها وهي أهم تيارات الحركة الإسلامية المعاصرة وعليها أهم مسئوليات تلك الحركة.

ويحدد الدكتور فتحي الشقاقي مهام المرأة المسلمة في ظل الحركة الإسلامية المعاصرة بأن على المرأة المسلمة ألا تبرر موقفها أو تحاول تخفيف وقع التزامها وإسلامها على الأخريات أو التنازل لهن، بل إن غير الإسلاميات هن المطالبات بتبرير موقفهن ومحاولة تغييره والانضمام إلى الحركة الإسلامية وقيمها وتصوراتها لا العكس.

وأن على المرأة المسلمة أن تعي قضية التحدي، وتاريخها، عليها أن تعي أن الغرب وقف أمامنا في وقت كنا فيه أكثر تخلفا على النطاق المدني منه، وفي وقت كنا فيه ابتعدنا إلى حد ما عن أصالة إسلامنا، وأمام انبهار بعضنا بتقدمه المدني استطاع أن يقدم لنا أخلاقه وسلوكه وقيمه وركز تركيزا شديدا على المرأة المسلمة لإدراكه بأن تدمير إسلام المرأة هو تدمير لإسلام المستقبل، وأن فهم قضية التحدي هو أولى الخطوات لتجاوز الهجمة، وأن على المرأة المسلمة حيث تقف أن تكون ضد السياسات التربوية والتعليمية غير الإسلامية وأن تكشف زيف المناهج التربوية والتعليمية الغربية التي استقرت داخل مجتمعاتنا وهذا أهم مجالات التغيير، إن المرأة المسلمة كأم والمرأة المسلمة كمدرسة بالذات أمامها تحد كبير لرفع الإسلام في وجه العلمانية بكل اتجاهاتها القومية والوطنية و الاشتراكية، لأن ذلك هو أهم الوسائل لبناء نشء إسلامي، والمرأة المسلمة عليها أن تقف مع الخيارات الإسلامية في مجال العمل فلا تختار إلا ما يقبله الإسلام وما يجعلها بعيدة عن الشبهات فذلك هو الوسيلة أمامنا لهز المؤسسات غير الإسلامية القائمة وعليها في نفس الوقت ألا

تهمل بيتها فهو مهمتها الأصلية نحو تغيير ملامح المجتمع فمن منزل إسلامي إلى منطقة إسلامية إلى مجتمع إسلامي، والمرأة المسلمة مطالبة بأن تتقدم بقوة إلى مجالات العمل الاجتماعي الإسلامي فحين تحاول التقدم لإزاحة الركام الطويل من القيم والمفاهيم والمؤسسات والاتجاهات غير الإسلامية علينا ألا نترك لهم مساحات العمل الاجتماعي فارغة، إن مجالات محو الأمية الكتابية والثقافية ومجالات القوافل الريفية ومجالات مكافحة الفقر في الأحياء والمدن والقرى كلها ضرورية لاقتراب المرأة المسلمة من الجماهير وآلامها تمهيدا لترشيدها ووضعها في الصف الإسلامي.

ويلخص الدكتور الشقاقي رؤيته لمهام المرأة المسلمة قائلاً: «المرأة المسلمة هي أهم تيارات الحركة الإسلامية المعاصرة، ونحو مزيد من الوعي لمشكلاتها ودورها عليها أن تبقي في تفاعل مستمر مع إطارات الحركة الإسلامية المتقدمة إلى الأمام».

(٦)

التجديد عند فتحي الشقاقي
زهور جديدة على نفس الشجرة

التجديد سنة من سنن الله تعالي في الكون والحياة، وجسم الإنسان مثلا تتجدد خلاياه باستمرار، فتنشأ خلايا جديدة وتموت خلايا قديمة ـ اللهم إلا الخلايا العصبية ـ ولكن هذا التجديد يتم من خلال الكائن الحي نفسه ومن داخله ويظل هذا الكائن الحي هو ذاته وليس شيئا مغايرا ولا ممسوخا، أي أن الجسم الحي الكائن متكامل يستخدم عناصر الماء والغذاء وغيرها في عملية تجديد مستمر لخلاياه وأنسجته أي أن التجديد يأتي من خلال هضم العوامل الخارجية واستخدامها في عملية تجديد داخلي بحتة.

والتجديد شرط من شروط النهضة والإبداع الحضاري لكن استنادا إلى الثوابت وانطلاقا منها وفي إطارها.

والدكتور فتحي الشقاقي وعى هذه الجدلية ومارسها فكرا وحركة، فهو أصولي حتى النخاع وهو أيضا مجدد كبير، ولا تناقض في هذا بالطبع، فالتجديد الإسلامي يكون انطلاقا من الأصول الإسلامية الدينية والحضارية الثابتة وإلا كان تخريبا واغترابا وإذا اقتربنا من فلسفة الدكتور الشقاقي التجديدية نجده صاغ المسألة على نحو عبقري، ففي تقديمه لسلسة دراسات تحت عنوان « نحو طلائع إسلامية واعية» قال الدكتور الشقاقي « يجب أن نواجه قضايانا بالتزام لا ينفصم عن أصول هذا الدين وبروج تجديدية باسلة ومؤمنة في وقت واحد ». العدد (١) من سلسلة نحو طلائع إسلامية واعية ـ إصدارات دار المختار الإسلامي ـ القاهرة.

وهكذا فالتجديد يجب أن يكون شجاعا وباسلا وأن يكون مؤمنا وأن يلتزم بأصول الدين ولا يخرج عنها.

ويقول الدكتور الشقاقي أيضا في نفس المرجع « إننا نعتقد أن إحدى مشاكلنا الفكرية أن هناك عدم توازن في الرؤية والممارسة فالتركيز على التسامح يجعلنا نقبل الدنية في ديننا، بينما التركز على الرفض يجعلنا نتجاهل تجارب الآخرين وإمكانية الاستفادة منها، عدم التوازن في فهم دور الغيب وفاعليته في الكون والبشر يؤدي في النهاية إلى إغفال قوانين الله وسننه الفاعلة وإلى تأليه الإنسان وتخبطه، تضخيم الماضي لا يؤدي إلا إلى العجز عن التقدم نحو المستقبل، ونسيان تجارب الماضي وتحليله علمياً لا يضع إلا النماذج التائهة المشوهة، ومحصلة لكل ذلك يجد المسلمون أنفسهم قد فقدوا أداة الوعي الصحيح وضاعوا في ذواتهم بنرجسية يحسدون عليها وأبوا عن فهم حركة التاريخ التي تحكمها سنن الله الفاعلة.

ويقول: « نحن ضد القوالب الجاهزة التي فعلها شخص ما على مقاييس شخص ما، ثم يفرضها على كل المسلمين، نحن مع أصول هذا الدين وقواعده ولكننا ضد تكوين الشخصية النمطية المتشابهة المكررة لأن هذه الشخصية ليست بالشخصية الإسلامية وليست بالشخصية المبدعة الطبيعية التي ستحمل راية هذا الدين إلى الأعلى وإلى الأمام، نحن ضد القوالب الجاهزة ومع أصالة هذا الإسلام العظيم، لأننا ننتمي إلى ذلك الجيل المتوهج المبدع من صحابة رسول الله ﷺ، ولأننا ننتمي إلى تلك الأجيال المتواصلة التي حملت رايات التجديد فتركت لنا هذا التراث العظيم، نحن مع جريان النهر وتقدمه لأننا مع منبعه وتفجره، نحن مع سقوط الأمطار ودوائر فعلها لأننا مع السحب السماوية الخيرة، ونحن مع تفتح زهور الشجر الدائم والمتواصل لأننا مع جذوره الممتدة والضاربة في عمق الخصب الإسلامي.

ويقول فتحي الشقاقي: « المطلوب الأن امتداد رأسي للفكر الإسلامي المعاصر بجانب الامتداد الأفقي المطلوب، وهو تعميق الوعي المعاصر بالإسلام، المطلوب الآن مواجهة شاملة وعميقة لهذه المرحلة الدقيقة التي يمر بها المسلمون في رحلتهم الشاقة والرائعة نحو الله العلي القدير.

وفي رؤية خلاقة ومبدعة وتجديدية يرصد الدكتور الشقاقي حال الإنتاج الفكري الإسلامي المعاصر قائلا: « من الملاحظ أن معظم الإنتاج الفكري

الإسلامي المعاصر لم يستطع حتى الآن أن ينفذ إلى أعماق مهماته أو أن يواكب هذا التصاعد في المد الإسلامي، إن كثيرا من الكتابات الإسلامية الآن لا تعدو أن تكون محاولات سهلة ومجانية لإعادة مقومات تدركها أمتنا إدراكا كاملا وسئمت غاية السأم من تكرارها وترددها ونستطيع أن نقول إن الإنتاج الفكري الإسلامي الآن يكاد ينقسم إلى قسمين الأول هو الإنتاج الفكري الذي يلتزم بوعي أو بدون وعي بالفكرة القائلة إن كل ما أنزل الله عز وجل وحدده رسوله العظيم قد تم فهمه واستيعابه من قبل علمائنا الأوائل وأن ما علينا الآن هو إعادة ترتيب ذلك الفهم وتقديمه للناس بشكل يسهل عليهم تمثله، وهؤلاء يقفون في وجه التقدم الإسلامي لأنهم لم يعوا طبيعة الإسلام، وإمكاناته المتجددة الشاملة والواعية في كل عصر، هؤلاء ينطلقون من الجمود عند حدود الماضي ويدعون تمثيل المستقبل، أما القسم الثاني فهو الإنتاج الفكري الذي يقول بأنه «الفهم العصري للإسلام» وهو لا يعدو أن يكون محاولات تلفيقية بين جوهر هذا الدين الحق وبين المناهج الفكرية الغربية، وهؤلاء ينطلقون من واقع الآخرين وليس من واقعنا، من وعي الآخرين وليس من وعينا، وهم في غمرة استلابهم الروحي أمام الفكر الغربي يحاولون أن يمرروا على أمتنا هزيمتهم في ثوب تلفيقي يدعون إسلامه».

***

وهكذا فإن الدكتور فتحي الشقاقي يرفض التراثية الواقفة والجامدة ويرفض أيضا الانطلاق من رؤية الآخرين لتلفيق نوع من الاتفاق الديني معها، وهو يرى أن الإشكالية تتحدد في كون الإنسان المسلم الطليعي المتقدم لصياغة العالم من جديد، عليه واجبات هائلة حتى يحقق شهادته الكاملة على عصره، فيحاول أن يقف مع جوهر الإسلام الحق في ضوء مكتسبات الإنسان المتواصلة في حياته الطويلة، وأن يقدم فهما حقيقاً وجادا ومعاصرا لإسلامنا بعيدا عن جمود أدعياء التراثية وأدعياء العصرية وأن يكون واعيا تمام الوعي بأن هناك أصولا في هذا الدين، أنزلها الله العزيز الحكيم في محكم آياته المباركات وأقرها رسوله العظيم وأجمع عليها صحابته وعلماء الأمة، هذه الأصول لا ينبغي الخروج عليها لأنها أمر الله عز وجل، وأنه لا

يجوز أن تتحول المحكمات إلى متشابهات، ولا يجوز أيضا تحول المتشابهات إلى محكمات، لأن في ذلك حكرا على عقل الأمة وأجيالها وفي ذلك خلل في ثقة المسلم بإمكانات هذا الدين وتجددها عبر الزمان والمكان».

ويؤكد الدكتور فتحي الشقاقي هنا على ضرورة التزام المفكر المسلم بشرطين هما أن تتحقق في شخصيته العبودية الكاملة لله ثم الوعي الشامل والدقيق بمرحلته من أجل تقدم إسلامي حقيقي.

ويضع الدكتور الشقاقي يده على نقص كبير في ظاهرة الصحوة الإسلامية ألا وهي قضية الأدب والفن، فنحن نفتقد أدبا إسلاميا طليعيا حقيقيا، فإذا كانت الحركة الإسلامية تقود محاولة التغيير وإزاحة وجه القبح الذي يغطي العالم، فكيف لا يحملها ولا تحمل هي أدبا وفنا تغييرا جديدا، كيف نفتقد الرواية الحقيقية والقصيدة المتوهجة والسينما وغيرها التي تستمد عمق الشحنة الإسلامية المتفاعلة مع عمق الحركة الكونية، فتكون شعلة الكشف أمام أمتنا ومضاء السلاح في يدها، وكيف لم نكتشف حتى الآن وسائلنا الفنية المحددة بمنظورنا الإسلامي إن كنا فعلا نمثل تناسق هذا العالم وجوهره النقي وجماله».

(٧)

الوحدة في المشروع الفكري والحركي لفتحي الشقاقي

يمكننا أن نرصد بسهولة ذلك التلازم الحيوي بين كل من الوحدة والجهاد وبين الصعود الحضاري للأمة الإسلامية، وبسقوط أو ضياع إحدى هاتين القيمتين يهبط المنحنى الحضاري للأمة الإسلامية وتتخلف على مستوى العمران والأخلاق وتتعرض للتحديات الخارجية والداخلية.

فالوحدة إذن عنصر أساسي من عناصر المشروع الحضاري الإسلامي وهي أولا فريضة شرعية وهي ثانيا ضرورة للصعود الحضاري الإسلامي ولحماية الأمة من أعدائها وضرورة أيضا لتحقيق أكبر قدر من المنجزات العمرانية، وضرورة أيضا لرقي الأخلاق والسلوك لدى أفراد هذه الأمة.

والأمة الإسلامية طالما كانت موحدة كانت قوية وقادة على تحقيق رسالتها وقادرة على حماية نفسها من الأعداء وقادرة على تحقيق العمران وقادرة أيضا على الرقي الأخلاقي والسلوكي والاجتماعي، وطالما كانت مفككة كانت ضعيفة غير قادرة على أداء رسالتها غير قادرة على حماية نفسها من الأعداء وغير قادرة على تقديم إنجاز عمراني ذي شأن ومنحطة أخلاقيا وسلوكيا واجتماعياً.

والنصوص الشرعية التي تؤكد فرضية الوحدة كثيرة ومتنوعة.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٩٢].

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون:٥٢].

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ

إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٠١].

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ونلاحظ في الآيتين الأولى والثانية أن هناك ارتباطا بين الوحدة والأمة الواحدة وبين عبادة الله في الأولى وتقواه في الثانية، وفي الآية الثالثة وضع الوحدة والاعتصام كمقابل للكفر، وجعل الوحدة والاعتصام هما الطريق إلى الصراط المستقيم وتستطيع أن تفسر الصراط المستقيم هنا بأنه طريق النجاة في الآخرة والعزة والسيادة الحضارية في الدنيا.

وفي الآية الرابعة نرى أن الله تعالى جعل الوحدة والاعتصام وعدم التفرق نوعا من النعمة وهي بلا شك نعمة عظيمة وجعلها أيضا طريقا لتجنب الهلاك في الدنيا والآخرة وهي معلم من معالم الهداية وهي إحدى آيات الله أي أن الوحدة آية من آيات الله تعالى وهي نعمة وهي طريق لتجنب البوار في الآخرة والدنيا على حد سواء.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران١٠٥].

أي أن الفرقة طريق إلى العذاب العظيم في الآخرة والانحطاط الحضاري في الدنيا والسقوط في الذلة والهوان.

ويقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات:١٠].

أي أن الوحدة والأخوة هي إحدى علامات الرحمة لأنها تنجي في الآخرة

وتصنع التقدم والعزة والسيادة في الدنيا.

ويقول الرسول ﷺ : «**من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه**» أخرجه أبو داود .

أي أن مجرد الزحزحة عن الوحدة ولو بشبر واحد خروج على ربقة الإسلام وخلع لهذه الربقة من العنق بما يعطي الانطباع بمدى أهمية وخطورة فريضة الوحدة ويقول:«**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» أخرجه البخاري ومسلم والترمذي، ويقول: «**يد الله مع الجماعة**» أخرجه الترمذي.

ولاحظ في هذا الحديث الموجز أن مدد الله يأتي مع الوحدة أو الوحدة شرط لنزول مدد الله تعالى ومدد الله تعالى هائل، وأمة تستند إلى مدد الله تعالى ـ وهو أقوى الأقوياء ـ قادرة على النصر والسيادة والإنجاز الحضاري بصورة ضخمة جدا تتناسب مع المدد الذي تنزل من الله العزيز القدير الحكيم العليم الذي يملك خزائن كل شيء.

أي أن الوحدة فريضة شرعية، وطريق إلى النجاة في الآخرة وطريق أيضا إلى العزة والسيادة والنصر وتحقيق أكبر المنجزات العمرانية في الدنيا.

***

الوحدة الإسلامية شرط لازم لمواجهة التحديات التي تعانيها أمتنا اليوم، وطريق أكيد إلى العزة ومواجهة الأعداء والنهضة في كل المجالات والأعداء يعرفون خطورة وأهمية هذه الوحدة ولذا فإن مؤامراتهم على الوحدة الإسلامية لا تنقطع، بل تكاد نجزم أن أي محاولة وحدوية على أساس إسلامي تجعل القوى الاستكبارية تتحرك لضربها سلما أو حربا، ومن الأشياء التي يحظرها علينا الأعداء محاولات التوحد بأي صورة من الصور بين أبناء العالم الإسلامي ونحن ندعو إلى الوحدة، ندعو إلى قيام الخلافة الإسلامية باعتبارها فريضة غائبة ونسعى لتحقيق ذلك، وفي نفس الوقت ندعم ونرحب ونؤيد أي محاولات وحدوية بين هذا القطر أو ذاك، مصر والسودان مثلا، أو الوحدة العربية، أو تحقيق نوع من التنسيق في أي مجال من

المجالات بين الدول الإسلامية، أو حتى بين الشعوب والمنظمات الشعبية الإسلامية «كاتحاد المنظمات الهندسية في العالم الإسلامي» أو أي شكل من الأشكال الوحدوية بشرط واحد، هو أن تكون طريقا إلى الوحدة الإسلامية وليس بديلا عنها أو بالتعارض معها.

والأعداء سخروا أقلاما عربية وإسلامية للأسف، للشوشرة على فريضة الوحدة بعدما نجحوا في إسقاط الخلافة الإسلامية «كعلي عبد الرزاق مثلا» وعلينا في مواجهة ذلك أن نؤكد على فريضة الوحدة ونسعى لنشر الفكر الوحدوي والسلوك الوحدوي والممارسات الوحدوية وكشف صلة دعاة الإقليمية بالمشروع الاستعماري وأنهم مجرد أبواق له.

إنه برغم سقوط الخلافة الإسلامية، كأسمى تعبير عن الوحدة الإسلامية فإن المظاهر الوحدوية في وجدان الشعوب الإسلامية ما زالت والحمد لله قوية، فنحن جميعاً نؤمن بإله واحد وكتاب واحد ورسول واحد ونتجه جميعا إلى مكان واحد في الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة «وهو الكعبة»، ونحن جميعا نحتفل بعيد الفطر وعيد الأضحى ونحج جميعا في وقت واحد إلى مكان واحد كل عام مرة ونصوم معا رمضان من كل عام، والإحساس بمشاكل المسلمين والتعامل معهم موجود والحمد لله في كل مكان ولولا الشعور الوحدوي القوي لدى الجماهير، لما رأينا هذا التعاطف الشعبي الواسع مع القضية الفلسطينية في كل مكان من العالم الإسلامي من تركيا إلى جنوب أفريقيا ومن طنجة إلى جاكراتا، وكذلك ظهر هذا الأمر جليا في دعم الجهاد الأفغاني بالمال والسلاح، وكذلك التعاطف مع مسلمي البوسنة والهرسك وغيرها من المظاهر الوحدوية التي تعبر عن وجدان وحدودي قوي لدى الجماهير المسلمة.

وحتى المسلمون في الغربة في أمريكا واستراليا وأوروبا يتصرفون كجالية ذات سمات مشتركة نجدهم يتعاطفون مع قضايا العالم الإسلامي ويدافعون عنها ويمارسون شعائر الإسلام معا لا فرق بين التركي والمغربي والهندي.

وعلينا أن نعمق هذا الشعور الوحدوي بكل وسيلة ممكنة، علينا أن نسعى لتوحيد التقويم على الأساس الهجري مثلا في كل البلاد الإسلامية، وتوحيد بدء الصوم والأعياد في كل العالم الإسلامي وفي خارج العالم الإسلامي أيضا، وعلينا الاهتمام بإنشاء مؤسسات إعلامية ذات طابع عالمي إسلامي، ونشر تلك المواد الإعلامية التي تؤكد على قيمة الوحدة، وعلينا أن نحقق اتحادات للمنظمات المهنية في العالم الإسلامي وكذا اتحادات للهيئات الشعبية والنقابات وغيرها، وعلينا أن ندعم أي تنسيق وتعاون في أي مجال بين الشعوب الإسلامية، بل والحكومات الإسلامية إذا أمكن، ويمكن اتخاذ القضية الفلسطينية مثلا باعتبارها قضية مركزية للأمة الإسلامية كقاعدة للانطلاق الوحدوي من خلالها، والوسائل كثيرة والمهم النية والجدية في العمل.

قضية الوحدة الإسلامية لم تعد تحتمل التأجيل، لأننا بالفعل كأمة مهددون في وجودنا، وهناك مؤامرة دولية واسعة تستهدف إلغاء وجودنا من العالم أو على الأقل إلغاء وجودنا الحضاري والتحول إلى رقيق للقوى الاستكبارية، وهناك تطهير عرقي للمسلمين في البوسنة والهرسك والهند، وهناك اضطهادات وتوسع يتم على حساب المسلمين في أذربيجان وفلسطين وبورما..... والقائمة طويلة جدا، والعالم كله يتجه إلى الكيانات الكبيرة والوحدة الأوروبية والوحدة الأمريكية، دول النمور الآسيوية..... إلخ، وفي عصر الكيانات الكبرى لا بديل أمام المسلمين عن الوحدة إن أرادوا الحياة والعالم الإسلامي يمتلك مقومات اقتصادية واستراتيجية هائلة وبشرية أيضا فهناك ١٤٠٠ مليون مسلم، وهناك رقعة جغرافية هائلة تقع في أهم مناطق العالم المتحكم في أخطر طرق المواصلات والشرايين الاقتصادية الحيوية، وهناك البترول والفوسفات واليورانيوم وغيرها من المعادن التي يكاد العالم الإسلامي يمتلك معظمها، وهناك الأقاليم المناخية المختلفة التي تحقق تنوعا هائلا في الإنتاج وهناك الأراضي الخصبة وموارد المياه والطاقة الهائلة، وهناك الإنسان المسلم الذي يستطيع بالإيمان أن يكون أفضل النوعيات البشرية على الإطلاق وبعد هذا فلا حجة لنا إن تقاعسنا عن إرادة الحياة، إرادة الوحدة.

على خلاف كبير بين علماء الاجتماع في تحديد العناصر التي تشكل أمة من الأمم أو قومية من القوميات، فمنهم من يجعل تلك العناصر اللغة، الثقافة، التاريخ المشترك، التحديات المشتركة، الجغرافيا المشتركة، الجنس الواحد... إلخ، ومنهم من يرفض جعل هذه العوامل أو أحدها شرطا لازما لظهور الأمة بدليل أن هناك دولا تتكلم الإنجليزية دون أن تشكل أمة واحدة والأمر نفسه بالنسبة للعناصر الأخرى.. وهكذا إلا أن هناك عددا من الملاحظات التي ينبغي أن نسجلها هنا أولها أن هناك خلطا بين مفهوم القومية بالمعنى الغربي وبين مفهوم الأمة، وجميع مدارس الفكر الاجتماعي تحدثت عن مفهوم القومية ولم تتحدث عن مفهوم الأمة، لسبب بسيط هو أن هذا الفكر نشأ نتيجة ظهور الدولة القومية في أوروبا، وأن هؤلاء المفكرين لم يعرفوا معنى الأمة بالمفهوم الحضاري الإسلامي، وثانيها أن جميع العناصر التي اعتبرت أساسا في تشكيل قومية ما ليست سوى نتائج لتكوين هذه الدولة القومية أي أنها مجرد وصف للظاهرة وليست سببا لها، وهي نتيجة لظهور الدولة القومية وليست سببا لها، بمعنى أن اللغة مثلا والثقافة والتاريخ وغيرها نشأت بعد تكوين الأمة وكنتيجة لها وليس العكس.

وثالثها أننا أمة ذات ملامح خاصة جدا «ربانية» وبالتالي فلا يمكن إخضاعنا للمعايير الغربية لاختلاف السياق الحضاري.

وعلى أي حال فإن القرآن الكريم يحدد لنا العناصر الأساسية لأمتنا وأسباب ظهورها ونتائجها فيقول الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.

أي أن سبب نشأة الأمة وعناصر تكوين هذه الأمة، وهو الذي أعطاها المنظومة الثقافية الواحدة، ومن خلال مهمتها الموكولة إليها نشأ التاريخ المشترك والمصير المشترك... وغيرها من العوامل التي تنتج عادة عن تكوين الأمم.

الأمة الإسلامية نشأت من خلال مهمتها ألا وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي الاضطلاع بمسئولية القضاء على الظلم والفساد والطبقية والاستبداد

والتعصب وغيرها من أنواع المنكر، وحماية الضعفاء والرحمة ودعوة الناس لكل خير ومعروف، أي الدعوة إلى المعروف ونشره ومنع المنكر والقضاء عليه سلما أو حربا، ومن خلال العمل لتحقيق ذلك نشأت الأمة الإسلامية، وهي أمة منفتحة لا تقوم على جنس أو لون أو قرابة دم أو غيرها بل هي تفتح ذراعيها لكل من يريد الدخول فيها من كل لون وجنس وأرض، والانخراط بالتالي في مهمتها في إزالة المنكر عن الأرض ونشر المعروف في ربوع العالم.

وهكذا نجد أن الأمة الإسلامية ترفض مفهوم العرقية والتفرقة العنصرية على أساس اللون أو الجنس : «كلكم لآدم وآدم من تراب» «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»، « ليس منا من دعا إلى عصبية ليس منا من قاتل على عصبية، ليس منا من مات على عصبية».

ونجد أن الأسود والأبيض والأصفر والأحمر ـ الأوروبي والعربي والأفريقي والتركي والهندي والإيراني، من يتكلم العربية ومن يتكلم غير العربية ، كلهم جميعا شاركوا في تشكيل هذه الأمة من خلال الاضطلاع بمهامها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

وتمثل «الوحدة» محورا أساسيا في المشروع الفكري والثوري للدكتور فتحي الشقاقي ولا شك أنه كرس جزءا كبيرا من مشروعه الفكري وممارساته الحركية لتأكيد هذا المفهوم ودفعه إلى الأمام، ويرى الدكتور فتحي الشقاقي أن واقع التجزئة والإقليمية هي إحدى نتائج النفوذ والهيمنة الغربية، وأن الوحدة بالتالي شرط لمواجهة مشروع الهيمنة الغربي.

يقول الدكتور فتحي الشقاقي في كتابه «الشيعة والسنة ضجة مفتعلة ومؤسفة» من منشورات المختار الإسلامي ص ١٥:

«منذ سقوط النظام السياسي المتمثل في دولة الخلافة آخر الدول الإسلامية علي يد مصطفي كمال أتاتورك عام ١٩٢٤، والوطن الإسلامي يمر بموجات متتالية من النكبات والكوارث، التي مكنت للنفوذ والهيمنة الغربية من الاستمرار والحضور

العنيف، وربما كانت الدولة العلمانية اللقيطة التي أفرزها المشروع الاستعماري الحديث أحد أهم أدوات الغرب في هذا الحضور، فعن طريقها تم تكريس واقع التجزئة الإقليمية في مقابل الأمة الواحدة والوطن الواحد على مدى ثلاثة عشر قرنا، ثم تكريس مناهج التغريب وآثارها التدميرية في مقابل التوحيد ومنهج الإسلام طريق الحق والسلام والكرامة، كما تم في ظل ذلك تنفيذ أهم أهداف الهجمات الغربية، وأكثرها خطورة حين تم إفراز الدولة العبرية في القلب من الوطن الإسلامي».

ولتحليل مضمون ما قاله الدكتور فتحي الشقاقي في هذا الصدد نجده قد ربط بين مشروع الهيمنة الغربي الاستعماري، وبين تكريس واقع التجزئة والإقليمية ثم إفراز دولة إسرائيل، وتكريس التغريب الفكري والثقافي، ولا شك أن هذه أمور مترابطة بل هي تمثل منظومة سياسية واحدة استخدمها الغرب، فالتجزيء والاستعمار والهيمنة الغربية والتغريب وإسرائيل، كلها حلقات في نفس السلسلة، وبالتالي لمواجهة هذا التحدي فإن هناك التوحيد ومنهج الإسلام ورفض الدولة العلمانية اللقيطة والجهاد لتحرير فلسطين والتصدي لحالة الاستلاب والتغريب التي يكرسها الغرب.

ويرصد الدكتور فتحي الشقاقي محاولات الغرب ومشروعه للهيمنة على العالم الإسلامي من خلال فكرة التجزئة والتفسيخ «فالغرب قد تحرك على عدة محاور لضرب الثورة الإسلامية في إيران بإثارة الأقليات القومية... ثم إثارة الفتنة بين السنة والشيعة» «الشيعة والسنة» نفس المرجع السابق ص ١٦.

ويضيف الدكتور فتحي الشقاقي «وإذا كانت كل المحاولات قد باءت بالفشل فإن المحاولة الأخيرة من إثارة الفتنة بين السنة والشيعة، قد حققت بعض النجاحات لأنها تتم خارج الأرض الإيرانية ويقودها طابور ضخم من وعاظ السلاطين الذين جندتهم الأنظمة الطاغوتية في هذه المؤامرة الصهيونية».

وهكذا يضع الدكتور فتحي الشقاقي يده على الجرح تماما ويحدد أن ضرب

الوحدة الإسلامية من خلال الفتنة بين السنة والشيعة هدف ثابت لمشروع الهيمنة الغربي، بل وأيضا مؤامرة صهيونية تستهدف حماية إسرائيل وتكريس وجودها وتوسعها، لأن الوحدة طريق أكيد للقضاء على المشروع الإسرائيلي، وكذا مشروع الهيمنة الغربية. ولأن الدكتور فتحي الشقاقي يشفع القول بالعمل، فقد تصدى شخصيا، وكذا تياره الفكري والسياسي لهذه الفتنة، وكان فكرا وممارسة نموذجا للدعوة إلى الوحدة وتحقيق شروطها، والدكتور فتحي الشقاقي السني حتى النخاع ـ تصدى بجرأة لتفنيد آراء وأفكار الغرب في الفتنة بين السنة والشيعة، واستطاع أن يرصد في كتابه الوحدوي الهام «الشيعة والسنة ضجة مفتعلة ومؤسفة» عشرات الأدلة الشرعية التي تؤكد وحدة الأمة الإسلامية من شيعة وسنة، فالله واحد والرسول واحد والقرآن واحد، بل والوحدة بين الشيعة والسنة ضرورة للطرفين وليست فقط مسألة شرعية، فهي أيضا ضرورة استراتيجية لمواجهة مشروع الهيمنة الغربي الذي لا يفرق بين مسلم سني ومسلم شيعي، بل يريد ضرب الإسلام كدين وحضارة بكل تياراته الفكرية والسياسية لصالح مشروع التجزئة والدولة الإقليمية العلمانية التفسيخية.

ويرى الدكتور فتحي الشقاقي أن الفتنة والتفسيخ وإثارة النزاعات المذهبية يكون عادة مواكبا لفترات الانحطاط والهزيمة في تاريخنا، حيث سيادة التقليد والتعصب المقيت فتحولت المدارس الفكرية التي بناها الأئمة العظام إلى أحزاب يرهب كل منها الآخر، باستخدام سلاح التكفير حينا وإشعال نار الفتنة في البيوت حينا آخر» «الشيعة والسنة» نفس المرجع السابق ص ١٨.

ويفند الدكتور فتحي الشقاقي حجج وترهات مدرسة الفتنة ورموزها ويعطي الدليل الشرعي والتاريخي على فساد هذه الحجج والآراء، ولا يقتصر الدكتور فتحي على ذلك بل يقدم عشرات الأدلة نقلا عن علماء الإسلام المحترمين ونقلا عن قيادات فكرية وحركية في جماعات الإسلام السياسي المعاصر والتي تؤكد كلها على وحدة الأمة، فهو ينقل ما يؤكد هذه الوحدة عن الحاجة زينب الغزالي والأستاذ عمر التلمساني، والأستاذ فتحي يكن، والأستاذ محمد علي الصفتاوي، وسالم

البهنساوي، وعبد المتعال الجبري، والدكتور إسحاق موسى الحسيني، والشيخ محمد الغزالي، والدكتور صبحي الصالح، والدكتور عبد الكريم زيدان، والشيخ سعيد حوي والأستاذ أنور الجندي وغيرهم من القيادات الفكرية والسياسية للحركة الإسلامية المعاصرة.

كما اعتمد الدكتور فتحي الشقاقي لتأكيد الوحدة والقضاء على الفتنة على دراسة تجربة التقريب بين المذاهب الإسلامية التي شارك فيها شيخ الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ محمود شلتوت وغيرهم، وأن الإمام الشهيد حسن البنا قد شارك بنشاط في هذه التجربة لأنه كان يعمل جاهدا على التقريب بين المذاهب حتى لا يتخذ أعداء الإسلام الفرقة بين المذاهب منفذاً يعملون من خلاله على تمزيق الأمة.

وكذا يرصد الدكتور فتحي الشقاقي الآراء الهامة التي تؤكد على التوحيد في مواجهة التفسيخ التي قالها علماء كبار أمثال الشيخ محمود شلتوت والشيخ عبد الحميد سليم والشيخ محمد أبو زهرة والدكتور مصطفى الشكعة والدكتور عبد الحليم محمود والأعظمي والمودودي، وكذا عدد من الكتاب والمفكرين الإسلاميين أمثال حسن أيوب وسميح عاطف الزين والدكتور عرفات عبد الحميد والدكتور علي سامي النشار، والدكتور محمد شريف والدكتور علي عبد الواحد وافي.

وهكذا فإن الدكتور فتحي الشقاقي وبمجهود كبير استطاع أن يرصد آراء العلماء القدامى والعلماء والمفكرين وأساتذة الجامعة وقيادات الحركات الإسلامية المعاصرين للتأكيد على الوحدة.

ويعلق الدكتور فتحي الشقاقي على ذلك بقوله ص ٤١ : «وبعد فهذا رأي البنا وشلتوت وأبو زهرة والغزالي والتلمساني وفتحي يكن وأنور الجندي وعبد الكريم زيدان والشكعة وخلاف والبهنساوي وسعيد حوي ووافي والأعظمي والمودودي وحسن أيوب ومشايخ الأزهر وغيرهم من أعلام المسلمين وقادتهم، فماذا تعني

هذه الأصوات الغريبة التي نسمعها من وقت لآخر تدعو للتكفير وإشعال نار الفتنة وسكب المزيد من المرارة في الحلوق والمزيد من الحقد في الصدور، ماذا يريد رسل البغضاء والوقيعة من أوراقهم ومحاضراتهم غير أن يتسع الحريق، بينما سيف المستكبرين معلق فوق رقابنا، وفي وطن يحتله أربعة ملايين يهودي، ولا نجد فيه شيعيا واحدا ماذا يجدي جر المسلمين إلى هذا المسلسل الجهنمي إلا إلهاء الناس وجرهم بعيدا عن المشكلات الحقيقية».

ولا شك أن ما قام به الدكتور فتحي الشقاقي من مجهود فكري وكذا مجهود حركي وسياسي في القضاء على فتنة التفريق بين المسلمين سنة وشيعة أمر من أهم الإنجازات الفكرية والسياسية والحركية للدكتور فتحي الشقاقي، وكان الدكتور فتحي الشقاقي بهذا الموقف نموذجا للمسلم المعاصر الذي يدرك تحديات اللحظة ويعطيها الإجابة الفكرية والسياسية الصحيحة استنادا إلى الأصول الإسلامية الثابتة.

وأذكر أنني شخصيا تناقشت مع الدكتور فتحي الشقاقي في مسألة السنة والشيعة، وقلت إن رأيي هو أن هناك بالفعل خلافات بين السنة والشيعة، وأن السني سيظل سنيا والشيعي سيظل شيعيا ولكن عوامل الوحدة ـ خاصة مع وجود التحديات- أكبر وينبغي الاعتراف بالخلاف والانطلاق إلى التعاون وهذا النمط من الوحدة واقعي وعملي ومفيد.

وإنني شخصيا أعترض على محاولات البعض تكفير الشيعة أو إخراجهم من زمرة المسلمين، فهذه محاولات أمريكية وإسرائيلية في ثياب وأقنعة مختلفة وبنفس القدر أرفض محاولات بعض القوى الشيعية للدعوى إلى التشيع بين صفوف السنة لأن هذا مدعاة للفتنة الكبير، وقد وافق الدكتور فتحي الشقاقي على ذلك تماما وقال لي إن الإمام الخوميني كان يستاء شخصيا كلما سمع عن محاولات البعض الدعوة إلى التشيع في صفوف السنة.

***

لم يقتصر الإسهام الفكري والحركي الوحدوي للدكتور فتحي الشقاقي على مسالة القضاء على الفتنة بين السنة والشيعة، بل تعداه إلى تقديم الإطار النظري الوحدوي الإسلامي، كما اهتم حركيا وسياسيا وفكريا بالحركات الإسلامية في العالم الإسلامي: في إيران والعراق وسوريا وفلسطين ومصر والأردن وتركيا والجزائر والسودان، كما أسهم في نشأة التجمعات الشعبية الإسلامية العالمية مثل المؤتمر الشعبي الإسلامي، والقيادة العالمية الإسلامية وحتى اللحظة الأخيرة من حياته كان يهتم بقضايا العالم الإسلامي في البوسنة والشيشان وأبخازيا وأذربيجان، كما اهتم بالأقليات الإسلامية في كل مكان في العالم.

ويرى الدكتور فتحي الشقاقي أن إحدى مهمات دولة إسرائيل التي من أجلها دعمها الغرب « أنها حارس لنظام التجزئة » وهكذا يفهم الدكتور فتحي الشقاقي أن الوحدة مستهدفة من المشروع الغربي والإسرائيلي.

ويقول الدكتور فتحي الشقاقي « لابد من وضع مسألة الوحدة على ذروة جدول أولويات المفكرين والدعاة والعلماء والتنظيمات السياسية والدول ونقل ذلك إلى أرض الممارسة الفعلية ويستدعي هذا إعادة العمل بقاعدة الأمة التاريخية » تقديم الوحدة على العدل « إذ يجب أن نسير جميعا إلى خيار الوحدة مهما كان اعتقادنا بأن في ذلك الخيار بعض الهضم لحقنا فيما نراه ـ فكريا أو سياسيا أو ماديا ـ صوابا. ولا بد أن ينعكس هذا على إنهاء حالة الصراع والتدافع بين القوى والمنظمات وعلى تقليص حالة التشرذم السياسي، وقبل ذلك وبعده لابد من إعادة الروح إلى حركة الجماهير الوحدوية، إن هناك فروقا في هذه المرحلة في مستوى المعيشة بين بلد عربي أو إسلامي وبلد آخر، وكذلك في مستوى التعليم والخدمات، وإن هذا الأمر المؤقت والعابر في معظم الحالات لابد ألا يمنع حكومة ودولة وشعبا من اختيار الوحدة مع دولة وشعب آخر. من ناحية أخرى لابد أن تلتزم قوى الأمة السياسية والشعبية بقاعدة أساسية، هي أنه في الوقت الذي لابد أن يكون فيه خيار الوحدة خيارا شعبيا، ألا يفرض بالقوة والعنف من القوي على الضعيف لما في ذلك من تقويض لقيم الوحدة ذاتها، وإلى جانب ذلك لابد من العمل ضد كل اتجاهات التجزئة، مهما كانت

راية هذه الاتجاهات. وبشكل مماثل يجب العمل ضد إقامة أية كيانات جديدة منفصلة في المنطقة » الصحراء الغربية مثلا « مهما كان الموقف من القوى التي تدعو لذلك. إن الأطر الرسمية الحالية كالجامعة العربية ومؤسساتها والمؤتمر الإسلامي ومؤسساته، لابد أن ترى من زاوية إيجابية، وأن تستخدم لتقرير التضامن وإلزام دولها الأعضاء بميثاقها وقيمها، في الوقت نفسه الذي يتم فيه تطويرها وإنجاز مشاريع وحدوية خارجها » فتحي الشقاقي ـ الاستقلال والتبعية في الحوض العربي الإسلامي مجلة منبر الشرق العدد ٨ ـ يوليو ١٩٩٣.

وهكذا فإن الدكتور فتحي الشقاقي أولا يريد تثبيت حالة الواقع العربي والإسلامي وإيقاف التجزئة المستمرة ثم إعطاء الروح للبنى والمؤسسات ذات الطابع الوحدوي وتطويرها لتحقيق إنجاز أكبر ثم إنجاز مشاريع وحدوية خارج تلك البنى والمؤسسات.

وهذه بلا شك نظرة واقعية ومبدئية في نفس الوقت، ومن المهم هنا أن نلفت النظر إلى إدراك الدكتور فتحي الشقاقي أن الوحدة عمل جماهيري في المقام الأول فلابد من إعادة الروح إلى حركة الجماهير الوحدوية.

والوحدة عند فتحي الشقاقي ليست وحدة للأمة الإسلامية فقط، ولكنها أيضا دعوة للوحدة في كل عمل ومسار وحركة، فهو يؤمن بالوحدة حتى النخاع. ولأنه ابن بار من أبناء الحركة الإسلامية وأحد كبار مفكريها في القرن العشرين، فإن من الطبيعي أن يدعو فتحي الشقاقي إلى وحدة الحركة الإسلامية.

وفي هذا الصدد يقول فتحي الشقاقي في العدد ١٩ من المختار الإسلامي يناير ١٩٨١ : «إننا ندعو كل فصائل وقوى الحركة الإسلامية إلى الوحدة من خلال تصور واحد لا يتغير ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ فلم تعد اللحظة التاريخية تحتمل هذا الانهيار وهذا التشرذم وهذا الغياب. لقد قضي محمد صلي الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين عاما حتى انتصر على قريش، فماذا أعددنا اليوم وأمامنا مليون قريش؟ إن وحدة الحركة الإسلامية مطلب في غاية الأهمية ليس كتكتيك مرحلي، بل كقضية استراتيجية، إذ لا جدوى من الحديث عن فعالية النشاط

الإسلامي بدونها فهي تعني وحدة الإرادة الإسلامية ووحدة الوعي الإسلامي، ومن ثم وحدة الفعل والفعل الإيجابي على طريق الانتصار. وبها وحدها يصبح هذا الانهيار أحد صور التحول التاريخي نحو ميلاد جديد ونحو أزمنة جديدة، ينحسر فيها الزبد ويتنامى فيها المد الإسلامي الذي كان دوما ماكنا في الأرض.

ويضيف الشقاقي : ولكن الحديث عن الحركة سيبقى لغوا لا طائل تحته إن لم تستوعب جملة مفاهيم هامة منها:

ليس هناك معنى لحركة إسلامية لا يوجد فيها مكان للجهاد بمفهومه الشامل وبرنامج يحدد أولويات هذا الجهاد، بل ليس هناك معنى لحركة إسلامية لم تميز بعد أن حكومات الوطن الإسلامي هي نفسها تلك الوجوه القرشية القديمة، بل أشد سوءا فهي اختلفت ألوان أعلامها والنوتة الموسيقية لأناشيدها الوطنية.

يجب أن ترفض الحركة الإسلامية أي تحالفات تكتيكية أو غير مبدئية مع أي قوى سائدة وتقف مع الجماهير، القوى الحقيقية التي يجب تبني مطالبها وفضح أساليب خداعها والاعتراف بأن العزلة عنها لن تأتي إلا بمزيد من التخبط والإفلاس والانتحار السياسي.

يجب على الحركة الإسلامية أن تعي ما يحدث في الزمن الآتي من خلال رؤية تحليلية لمراكز القوة المؤثرة وأطراف الصراع، ثم تبحث عن كل هذا في التاريخ الذي ستبقي دراسته واستيعابه ملاذا آمنا لاستقرار المستقبل.

يجب أن تنظم هذه المفاهيم وغيرها من خلال برنامج متكامل للعمل يحمل رؤى واضحة الأبعاد والمعالم، ويحدد بصفة أساسية نقطة البدء والوسائل والأهداف وأولويات الجهاد، وبدون ذلك ستبقي ودوما كمن يحرث في البحر.